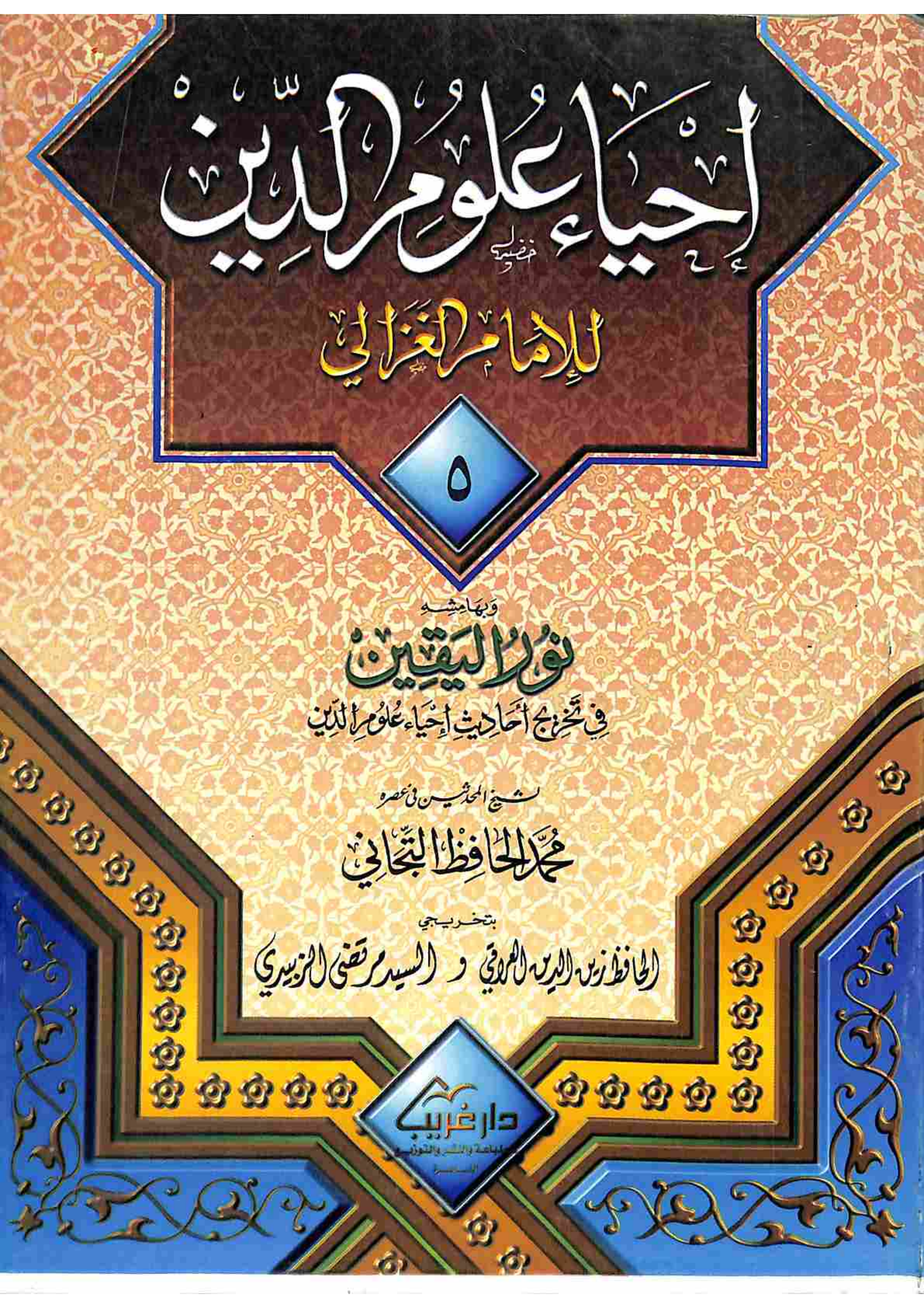

إحياء علوم الدين
للإمام الغزالي
٥
وبهامشه
نور اليقين
في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين
لشيخ المحدثين في عصره
محمد الحافظ التجاني
بتخريجي
الحافظ زين الدين العراقي و السيد مرتضى الزبيدي
دار غريب

الأول: أن يعتدل التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك، كما إذا سئلت عن شخص معين أن الله تعالى يعاقبه أم لا، وهو مجهول الحال عندك فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفى بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكا.

الثانى: أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه، ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول، كما إذا سئلت عن رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه بعينه لو مات على هذه الحالة هل يعاقب، فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لظهور علامات الصلاح ومع هذا فأنت تجوِّز اختفاء أمرٍ موجب للعقاب فى باطنه وسريرته، فهذا التجويز مساو لذلك الميل، ولكنه غير دافع رجحانه فهذه الحالة تسمى ظنّا.

الثالث: أن تميل النفس إلى التصديق بشىء بحيث يغلب عليها ولا يخطر بالبال غيره ولو خطر بالبال تأبى النفس عن قبوله، ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإصغاء إلى التشكيك والتجويز اتسعت نفسه للتجويز، و هذا يسمى اعتقاداً مقاربًا لليقين، وهو اعتقاد العوام فى الشرعيات كلها إذ رسخ فى نفوسهم بمجرد السماع، حتى أن كل فرقة تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نفر عن قبوله.

الرابع: المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذى لا يشك فيه ولا يتصوَّر الشك فيه، فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقينًا عند هؤلاء، ومثاله أنه إذا قيل للعاقل: هل فى الوجود شىء هو قديم، فلا يمكنه التصديق به بالبديهة لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحس، وليس العلم بوجود شىء قديم أزلى ضروريا مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، بل مثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، فإن هذا أيضًا ضرورى فحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة، ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسماع تصديقًا جازمًا ويستمر عليه، وذلك هو الاعتقاد، وهو حال جميع العوام، ومن الناس من يصدق به بالبرهان، وهو أن يقال له: إن لم

يكن فى الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة، فإن كانت كلها حادثة فهى حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال، فالمؤدى إلى المحال محال فيلزم فى العقل التصديق بوجود شيء قديم بالضرورة، لأن الأقسام ثلاثة وهى أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة، أو بعضها قديمة وبعضها حادثة، فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم، وإن كان الكل حادثًا فهو محال إذ يؤدى إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول، وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقينًا عند هؤلاء، سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه، أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب، أو بتواتر العلم بوجود مكة، أو بتجربة كالعلم بأن السقمونيا المطبوخ مسهل، أو بدليل كما ذكرنا، فشرط إطلاق هذا الاسم عندهم عدم الشك، فكل علم لا شك فيه يسمى يقينًا عند هؤلاء، وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعف إذ لا تفاوت فى نفى الشك.

الاصطلاح الثانى: اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء، وهو ألا يلتفت فيه إلى اعتبار التجويز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل، حتى يقال: فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لاشك فيه، ويقال: فلان قوى اليقين فى إتيان الرزق، مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه، فمهما مالت النفس إلى التصديق بشيء وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف فى النفس بالتجويز والمنع سمى ذلك يقينًا، ولا شك فى أن الناس مشتركون فى القطع بالموت والانفكاك عن الشك فيه، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له، ولم يغادر فيه متسعًا لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين، ولذلك قال بعضهم: « ما رأيت يقينًا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة، ونحن إنما أردنا بقولنا: إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين بالمعنيين جميعًا، وهو نفى الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها، فإذا فهمتَ هذا علمتَ أن المراد من قولنا: إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام بالقوّة والضعف، والكثرة والقلة، والخفاء والجلاء.

فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثانى، وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب، ودرجات معانى اليقين فى القوة والضعف لا تتناهى، وتفاوت الخلق فى الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى، وأما التفاوت بالخفاء والجلاء فى الاصطلاح الأول فلا ينكر أيضًا، أما فيما يتطرق إليه التجويز فلا ينكر، أعنى الاصطلاح الثانى، وفيما انتفى الشك أيضًا عنه لا سبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فدك مثلا، وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليهما السلام، مع أنك لا تشك فى الأمرين جميعًا فمستندهما جميعًا التواتر، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين، وكذلك يدرك الناظر هذا فى النظريات المعروفة بالأدلة فإنه ليس وضوح ما لاح له بدليل واحد كوضوح ما لاح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما فى نفى الشك، وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الكتب والسماع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال، وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين، كما يقال: فلان أكثر علمًا من فلان، أى معلوماته أكثر، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ما ورد الشرع به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه.

فإن قلت: قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وجلاءه وخفاءه بمعنى نفى الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب، فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه؟ وفى ماذا يطلب اليقين فإنى ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طلبه؟

فاعلم أن جميع ما ورد به الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين، فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقة بالمعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحصائها، ولكنى أشير إلى بعضها وهى أمهاتها:

فمن ذلك التوحيد وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط، بل يرى الوسائط مسخرة لا حكم لها، فالمصدق بهذا موقن فإن انتفى عن قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين، فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالت عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم ونزّل الوسائط فى قلبه منزلة القلم واليد فى

حق المنعم بالتوقيع؛ فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين فقد صار موقنًا بالمعنى الثانى وهو الأشرف، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته، ومهما تحقق أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق فهى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب، وأن القدرة الأزلية هى المصدر للكل - استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم، وصار موقنًا بريئًا من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق، فهذا أحد أبواب اليقين.

ومن ذلك الثقة بضمان الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ (هود: ٦) واليقين بأن ذلك يأتيه وأن ما قدر له سيساق إليه، ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجملا فى الطلب، ولم يشتد حرصه وشرهه وتأسفه على ما فاته، وأثمر هذا اليقين أيضًا جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة.

ومن ذلك أن يغلب على قلبه أن: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى نسبة الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشبع، ونسبة المعاصى إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعى إلى الهلاك، فكما يحرص على التحصيل للخبز طلبًا للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلها وكثيرها، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذلك يجتنب المعاصى قليلها وكثيرها وصغيرها وكبيرها، فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين، أما بالمعنى الثانى فيختص به المقربون، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة فى الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة فى التقوى والتحرز عن كل السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ.

ومن ذلك اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك فى كل حال ومشاهد لهواجس ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك، وأما بالمعنى الثانى - وهو المقصود - فهو عزيز يختص به الصدِّيقون، وثمرته أن يكون الإنسان

فى خلوته متأدبًا فى جـميع أحواله كالجالس بمـشهد ملك معظم ينظر إليـه فإنه لا يزال مطرقًا متأدبًا فى جميع أعـماله متماسكا محترزًا عن كل حركـة تخالف هيئة الأدب، ويكون فى فكرته الباطنة كهو فى أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريرته كما يطلع الخلق على ظاهره، فتكون مبالغته فى عمارة باطنه وتطهيـره وتزيينه بعين الله تعالى الكالئة أشد من مبالغته فى تزيين ظاهره لسائر الناس، وهذا المـقام فى اليقين يورث الحيـاء والخوف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة، وهذه الأخلاق تورث أنواعا من الطاعات رفيـعة، فـاليقين فى كـل باب من هذه الأبواب مثل الشـجرة، وهذه الأخلاق فى القـلب مثل الأغصـان المتفرعـة منها، وهذه الأعمـال والطاعات الصادرة من الأخـلاق كالثمـار وكالأنوار المتفرعة من الأغصان، فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثر مما عددناه وسيأتى ذلك فى ربع المنجيات إن شاء الله تعالى و هذا القدر كاف فى معنى اللفظ الآن.

ومنها أن يكون حزينًا منكسرًا مطرقًـا صامتًا يظهر أثر الخشية على هيئتـه وكسوته وسيرته وحركـته وسكونه ونطقه وسـكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظـره مذكرًا لله تعـالى، وكانت صورته دليلا على عمله فالجواد عينه مرآته، وعلماء الآخرة يُعرفون بسيماهم فى السكينة والذلة والتواضع، وقد قـيل: ما ألبس الله عبدًا لُبسة أحـسن من خشوع فى سكينة فهى لُبسـة الأنبياء وسيـما الصالحـين والصديقـين والعلماء، وأما التـهافت فى الكلام والتـشدق والاستـغراق فى الضحك والحدة فـى الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عـن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيـا الغافلين عن الله دون العلماء، وهذا لأن العلماء ثلاثة كمـا قال سهل التسـترى رحمه الله: عـالم بأمر الله تعالى لا بأيام الله وهم المـفتون فى الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية، وعالم بالله تعالى لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم عموم المؤمنين، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصدِّيقون، والخشية والخشوع إنما تغلب عليـهم، وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ونعمه البـاطنة التى أفاضها على القرون السالفة واللاحقة؛ فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه.

وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم.

ويقال: ما آتى الله عبدًا علمًا إلا آتاه الله معه حلماً وتواضعًا وحسن خلق ورفقًا، فذلك هو العلم النافع، وفى الأثر: « من آتاه الله علمًا وزهدًا وتواضعًا وحسن خلق، فهو إمام المتقين ».

وفى الخبر: « **إن من خيار أمتى قومًا يضحكون جهراً من سعة رحمة الله، ويبكون سرّاً من خوف عذابه، أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء، أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة** » (١٧٨).

وقال الحسن: الحلم وزير العلم والرفق أبوه، والتواضع سرباله. وقال بشر بن الحارث: من طلب الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببغضه فإنه ممقوت فى السماء والأرض. ويروى فى الإسرائيليات أن حكيما صنف ثلاثمائة وستين مصنفًا فى الحكمة حتى وصف بالحكيم؛ فأوحى الله تعالى إلى نبيه: قل لفلان: قد ملأت الأرض نفاقًا ولم تردنى من ذلك بشىء، وإنى

---

(١٧٨) حديث: وفى الخبر: «إن من خيار أمتى قومًا يضحكون جهراً من سعة رحمة الله عز وجل، ويبكون سرّاً من خوف عذاب الله، أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء، أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة » لأنه لا راحة للمؤمن دون لقائه ربه، والدنيا سجنه حقا، فلذا يجد المؤمن بدنه فى الدنيا وروحه فى السماء، وفى الحديث المرفوع: « إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة فيقول: انظروا إلى عبدى بدنه فى الأرض وروحه عندى »، رواه تمام غيره وهذا معنى قول بعض السلف: القلوب جوّالة فقلب حول الحش وقلب يطوف مع الملائكة حول العرش، قال ابن القيم: ولا يبادر إلى إنكار كون البدن فى الدنيا، والروح فى الملأ الأعلى، فللروح شأن وللبدن شأن، والنبى ﷺ كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه طعمه ويسقيه، فبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه، وقال أبو الدرداء: إذا نام العبد عرج بروحه إلى تحت العرش، فإن كان طاهرًا أذن له بالسجود فإن لم يكن طاهراً لم يؤذن له بالسجود، فهذه والله أعلم هى العلة التى أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم، وهذا الصعود إنما كان لتجرد الروح عن البدن بالنوم، فإذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب ذلك التجرد، وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه، وروحه فى موضع آخر عند محبوبه.

لا أقبل من نفاقك شيئًا فندم الرجل وترك ذلك وخالط العامة ومشى فى الأسواق وواكل بنى إسرائيل وتواضع فى نفسه؛ فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له: الآن وفقت لرضاى.

وحكى الأوزاعى رحمه اللـه عن بلال بن سعد أنه كان يقول: ينظر أحدكم إلى الشرطى فيستعيذ بالله منه، وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين للخلق المتشوقين إلى الرياسة فلا يمقتهم وهم أحق بالمقت من ذلك الشرطى.

وروى أنه قيل: يا رسول الله أى الأعمال أفضل؟ **قال: « اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطبا من ذكَّر الله تعالى »**، قيل: فأى الأصحاب خير؟ **قال ﷺ: « صاحب إن ذكرت الله أعانك، وإن نسيته ذكَّرك»**، قيل: فأى الأصحاب شر؟ **قال: « صاحب إن نسيت لم يذكِّرك، وإن ذكرت لم يعنك»**، قيل: فأى الناس أعلم؟ **قال: أشدهم لله خشية »** قيل: فأخبرنا بخيارنا نجالسهم **قال ﷺ: « الذين إذا رءُوا ذُكر الله»**، قيل: فأى الناس شر؟ **قال: « اللهم غفرا»** قالوا: أخبرنا يا رسول الله **قال: « العلماء إذا فسدوا »** (١٧٩).

---

(١٧٩) حديث: قيل: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: « اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطبا من ذكر الله تعالى . . . » **قال العراقى**: لم أجده هكذا مجموعًا بطوله وهو متلفق بعضه من أحاديث، فروينا فى كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية محمد بن عدى عن يونس عن الحسن قال: سئل النبى ﷺ: أى الأعمال أفضل؟ قال: « أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله ». وروي ذلك أيضا من حيث عبد الله بن بسر المازنى مرفوعًا، أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس وإسناده جيد، وروى أيضًا من حديث معاذ بن جبل، وذكر المصنف فى «آداب الصحبة» حديثًا متنه: « إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له أخًا صالحًا إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه» ، وسيأتى ذلك فى بابه، وروى الثعلبى بإسناده عن الشعبى « إنما العالم من يخشى الله »، وروى البزار من رواية جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله مَنْ أولياء الله؟ قال: « الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل » ، وروى البزار أيضًا من حديث معاذ قال: قلت: يا رسول الله أى الناس شر؟ فقال: « اللهم غفرا سل عن الخير ولا تسأل عن الشر، شرار الناس شرار العلماء » وإسناده ضعيف، وروى الدارمى فى مسنده من رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلا، وقد تقدم فى الباب الثالث.

قال مرتضى: هذا الحديث بطوله أورده صاحب القوت وإياه تبع المصنف ولفظه: وقد روينا حديثًا حسنا مقطوعا عن سفيان عن مالك بن مغول قال: قيل يا رسول الله » فساقه وفيه «وصاحب إن سكت» بدل « نسيت» والباقى سواء.

وقال ﷺ : « إن أكثر الناس أمانًا يوم القيامة أكثرهم فكرًا فى الدنيا، وأكثر الناس ضحكا فى الآخرة أكثرهم بكاء فى الدنيا، وأشد الناس فرحا فى الآخرة أطولهم حزنا فى الدنيا » (١٨٠).

وقال على رضي الله عنه فى خطبة له: ذمتى رهينة وأنا به زعيم: إنه لا يهيج على التقوى زرع قوم، ولا يظمأ على الهدى سبخ أصل، وإن أجهل الناس من لا يعرف قدره، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قمش علمًا أغار به فى أغباش الفتنة سماه أشباه له من الناس وأراذلهم عالمًا ولم يعش فى العلم يومًا سالمًا تكثر واستكثر، فما قل منه وكفى خير مما كثر وألهى، حتى إذا ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلمًا لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المهمات هيأ لها من رأيه حشو الرأى فهو من قطع الشبهات فى مثل نسج العنكبوت لا يدرى أخطأ أم أصاب، ركّاب جهالات خباط عشوات لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، ولا يعض على العلم بضرس قاطع فيغنم، تبكى منه الدماء وتُستحل بقضائه الفروج الحرام، لا ملئ والله بإصدار ما ورد عليه ، ولا هو أهل لما فوض إليه أولئك الذين حلت عليهم المثلات وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا.

وقال على رضي الله عنه: إذا سمعتم العلم فاكظموا عليه، ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب. وقال بعض السلف: العالم إذا ضحك ضحكة مجَّ من العلم مجة. وقيل: إذا جمع المعلم ثلاثًا تمت النعمة بها على المتعلم: الصبر والتواضع وحسن الخلق، وإذا جمع المتعلم ثلاثًا تمت النعمة بها على المعلم: العقل والأدب وحسن الفهم.

---

(١٨٠) حديث : « إن أكثر الناس أمانًا يوم القيامة أكثرهم فكرًا فى الدنيا وأكثر الناس ضحكا فى الآخرة أكثرهم بكاء فى الدنيا، وأشد الناس فرحًا فى الآخرة أطولهم حزنًا فى الدنيا » أورده صاحب القوت عن عامر بن عبد الله المقبرى وكان من أقران الحسن سمعت مشيختنا فيما يروون عن نبينا ﷺ أنه كان يقول : « إن أصفى الناس إيمانًا يوم القيامة أكثرهم فكرة فى الدنيا، وأكثر الناس ضحكا فى الجنة » والباقى سواء. **قال العراقى** : لم أجد له أصلا بجملته فى الأحاديث المرفوعة ، ولأول الجملة شاهد فى صحيح ابن حبان من حديث أبى هريرة رفعه فيما يروى عن ربه جل وعلا : « وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين وأمنين إذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة ،وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة» وللجملة الأخيرة من رواية مالك بن دينار قال : رأيت الحسن فى منامى مشرق اللون ، وفى آخره « أطول الناس حزنًا فى الدنيا أطولهم فرحًا فى الآخرة» رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الهم والحزن .

وعلى الجملة فالأخلاق التى ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة، وقال ابن عمر ﷺ: « **لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن** » (١٨١) وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغى أن يقف عنده منها، ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدرى ما آمره وما زاجره وما ينبغى أن يقف عنده ينثره نثر الدقل، وفى خبر آخر بمثل معناه، « **كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتى بعدكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان يقيمون حروفه ويضيّعون حدوده وحقوقه، يقولون: قرأنا فمن أقرأ منا وعلمنا فمن أعلم منا؛ فذلك حظهم** » (١٨٢) وفى لفظ آخر: « أولئك شرار هذه الأمة ».

---

(١٨١) حديث: وقال ابن عمر ﷺ: «عشنا برهة - أى زمانا - أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن . . » هكذا أورده صاحب القوت ولفظه : وروينا عن ابن عمر وغيره « لقد عشنا برهة من دهرنا » وفيه: فيتعلم بدل فيعلم وفيه بعد قوله يتوقف عنده منها كما تتعلمون أنتم اليوم القرآن والباقى سواء ، **قال العراقى**: أخرجه الطبرانى فى الأوسط والحاكم فى المستدرك من رواية قاسم بن عوف الشيبانى قال: سمعت ابن عمر يقول: فساقه كسياق القوت، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة ولم يخرجاه.ا هـ .

قال مرتضى : وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ ذكر أن فى أمته قومًا يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل ، يتأولونه على غير تأويله لا يجاوز تراقيهم تسبق قراءتهم إيمانهم. والدقل محركة أردأ التمر ، وقال السرقسطى : هو تمر الروم .

(١٨٢) حديث : « كنا أصحاب رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن » هكذا أورده صاحب القوت بعد إيراده حديث جندب البجلى **وقال العراقى** : روى ذلك من حديث جندب بن عبد الله البجلى ، رواه بن ماجه مختصراً على القدر المرفوع منه من رواية أبى عمران الجونى عن جندب قال : كنا مع النبى ﷺ ونحن فتيان خزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا. وإسناده صحيح ، زاد الطبرانى فيه : وإنكم اليوم تعلمون القرآن قبل الإيمان، وهو صحيح أيضًا، وروى مسلم وابن ماجه من رواية عبد الله بن الصامت عن أبى ذر ورافع بن عمرو الغفارى مرفوعا : « إن بعدى من أمتى يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه، هم شر الخلق والخليقة » وروى البيهقى فى سننه فى أبواب الإمامة من حديث حذيفة نحو حديث جندب . اهـ . وأورد صاحب القوت حديث جندب المتقدم، ثم قال : وعن ابن مسعود قال : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملا،=

وقيل: خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل: الخشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد، فأما الخشية فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

وأما الخشوع فمن قوله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (آل عمران: ١٩٩).

أما التواضع فمن قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: ٨٨).

وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وأما الزهد فمن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (القصص: ٨٠).

ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الأنعام: ١٢٥) فقيل له: ما هذا الشرح فقال: **«إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح»**، قيل: فهل لذلك من علامة؟ قال ﷺ: **«نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»** (١٨٣).

= وسيأتي قوم يثقفونه تثقيف الغناء ليسوا بخياركم . وفي لفظ آخر : «يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه» وهذا قد تقدم للمصنف .

(١٨٣) حديث : ولما تلا رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ** ﴾ قال العراقي : رواه الحاكم في المستدرك من رواية عدي بن الفضل عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ** ... ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ : « إن النور إذا دخل الصدر انفسح» فقيل : يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف ؟ قال : « نعم. . . » فذكره قال: وقد سكت عليه الحاكم وهو ضعيف ، ورواه البيهقي في الزهد من رواية عمرو ابن مرة عن عبد الله بن الحرث عن ابن مسعود ، ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق قال : أخبرنا عبد الرحمن المسعودي عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر رجل من بني هاشم وليس=

ومنها أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر، فإن أصل الدين التوقى من الشر، ولذلك قيل:

عرفت الشرَّ لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشرَّ من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة، وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان، وإنما الشأن فى معرفة ما يفسدها ويشوشها وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه وتعم به البلوى فى سلوك طريق الآخرة وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات فى الحكومات والأقضية، ويتعبون فى وضع صور تنقضى الدهور ولا تقع أبدًا وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لا لهم، وإذا وقعت كان فى القائمين بها كثرة، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار فى خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم، وما أبعد عن السعادة من باع مهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثاراً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه، وشرهًا فى أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققًا عالمًا بالدقائق، وجزاؤه من الله ألا ينتفع فى الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان، ثم يرد القيامة مفلسًا متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقربهم هديًا من الصحابة ﷺ اتفقت الكلمة فى حقه

= بمحمد بن على قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر مثل رواية الحاكم إلا أنه قال : قيل : هل لذلك من آية يعرف بها ؟ وقال فى آخره: قبل الموت، وهذا مرسل ضعيف وهو الصواب فى رواية هذا الحديث وما قبله ضعيف كما بينه الدارقطنى فى العلل وسئل عنه فقال: يرويه عمرو بن مرة واختلف فيه عنه فرواه مالك بن مغول عن عمرو بن مرة عن عبيدة عن عبد الله قاله عبد الله بن محمد بن المغيرة تفرد بذلك ورواه زيد بن أبى أنيسة، عن عمرو بن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قاله أبو عبد الرحيم عن زيد ، وخالفه يزيد بن سنان فرواه عن زيد عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله وكلها وهم، والصواب عن عمرو بن مرة عن أبى جعفر عبد الله بن المسور مرسلاً عن النبى ﷺ كذلك قاله الثورى قال : وعبد الله بن المسور هذا متروك .

على ذلك، وكان أكثر كلامه فى خواطر القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس، وقد قيل له: يا أبا سعيد، إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته؟ قال: من حذيفة بن اليمان، وقيل لحذيفة: نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته؟ قال: خصنى به رسول الله ﷺ: « **كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه** »(١٨٤)، وعلمت أن الخير لا يسبقنى علمه، وقال مرة: فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير، وفى لفظ آخر: كانوا يقولون:

---

(١٨٤) حديث: « كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه » رواه البخارى ومسلم هكذا مختصراً، وفى آخره زيادة من رواية أبى إدريس الخولانى أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت: يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال: «نعم» قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: « نعم وفيه دَخَن. . . » الحديث بطوله، **قاله العراقى. قال مرتضى**: أخرجه أبو نعيم فى الحلية فقال: حدثنا محمد بن أحمد بن حمدان، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن جابر، حدثنى بشر بن عبد الله الحضرمى أنه سمع أبا إدريس الخولانى يقول: سمعت حذيفة يقول . . . فساقه بطوله « وعلمت أن الخير لا يسبقنى » هكذا هو فى القوت، وأخرج أبو نعيم فى الحلية من رواية أبى داود الطيالسى قال: حدثنا سليمان بن المغيرة، حدثنى حميد بن هلال، حدثنا نصر بن عاصم الليثى قال: أتيت اليشكرى فى رهط من بنى ليث فقال: قدمت الكوفة فدخلت المسجد فإذا فيه حلقة كأنما قطعت رءوسهم يستمعون إلى حديث رجل فقمت عليهم، فقلت: من هذا؟ فقيل: حذيفة بن اليمان فدنوت منه فسمعته يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر فعرفت أن الخير لم يسبقنى، ثم ساق الحديث بطوله قال أبو نعيم ورواه قتادة عن نصر بن عاصم وسمى اليشكرى خالدا. اهـ. **وقال العراقى**: ورواه أبو داود من رواية سبيع بن خالد قال: أتيت الكوفة زمن فتحت تستر . . . الحديث، وفيه بعد ذكر الشر الأول قلت: فما العصمة من ذلك فساقه إلى آخره، وسمى التابعى فى رواية أخرى خالد بن خالد اليشكرى، وروى مسلم من رواية أبى سلام قال: قال حذيفة قلت: يا رسول الله إنا كنا بشر فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: «نعم»، قلت: كيف؟ قال: « تكون بعدى أئمة . . . » الحديث بطوله. وروى البخارى من رواية قيس بن أبى حازم عن حذيفة قال: تعلم أصحابى الخير وتعلمت الشر اهـ. وأخرج أبو نعيم فى الحلية من رواية خلاد بن عبد الرحمن أن أبا الطفيل حدثه أنه سمع حذيفة يقول: يا أيها الناس ألا تسألون فإن الناس كانوا يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر، أفلا تسألونى عن ميت الأحياء، فساق الحديث بطوله.

يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول: يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا، فلما رآنى أسأله عن آفات الأعمال خصنى بهذا العلم، وكان حذيفة ﷺ أيضًا قد خُص بعلم المنافقين، وأُفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة ﷺ يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يُسئل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم، وكان عمر ﷺ يسأله عن نفسه هل يعلم فيه شيئًا من النفاق، فبرأه من ذلك، وكان عمر ﷺ إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها، وإلا ترك، وكان يسمَّى صاحب السر، فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة، لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى، وقد صار هذا الفن غريبًا مندرسًا، وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد وقيل: هذا تزويق المذكرين فأين التحقيق، ويرون أن التحقيق فى دقائق المجادلات، ولقد صدق من قال:

الطرق شتى وطرق الحق مفردة ... والسالكون طريق الحق أفراد

لا يُعرفون ولا تُدرى مقاصدهم ... فهم على مهل يمشون قُصَّاد

والناس فى غفلة عما يُراد بهم ... فجُلّهم عن سبيل الحق رقّاد

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم، فإن الحق مرّ والوقوف عليه صعب، وإدراكه شديد، وطريقه مستوعر، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة؛ فإن ذلك نزع للروح على الدوام وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه فهو يقاسى الشدائد ليكون فطره عند الموت، ومتى تكثر الرغبة فى هذا الطريق، ولذلك قيل إنه كان فى البصرة مائة وعشرون متكلما فى الوعظ والتذكير، ولم يكن من يتكلم فى علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم سهل التسترى والصبيحى وعبد الرحيم، وكان يجلس إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى، وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يبذل للعموم فأمره قريب.

ومنها أن يكون اعتماده فى علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، وإنما المقلَّد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله، وإنما يقلد الصحابة ﷺ من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ، ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ فى تلقى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغى أن يكون حريصًا على فهم أسراره ؛ فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع ﷺ فعله، وفعله لابد وأن يكون لسرّ فيه فينبغى أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما، ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار، ومن كشف عن قلبه الغطاء واستنار بنور الهداية صار فى نفسه متبوعًا مقلَّدا فلا ينبغى أن يقلد غيره، ولذلك قال ابن عباس ﷺ: « **ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله ﷺ** » [(١٨٥)] وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أُبىّ بن كعب ثم خالفهما فى الفقه والقراءة جميعًا، وقال بعض السلف: ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة ﷺ فنأخذ منه ونترك، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال وإنما فضل الصحابة لمشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله ﷺ واعتلاق قلوبهم أمورًا أدركت بالقرائن فسددهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل فى الرواية والعبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يحرسهم فى الأكثر عن الخطأ، وإذا كان الاعتماد على المسموع من الغير تقليدًا غير مرضى فالاعتماد على الكتب والتصانيف أبعد بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شىء منها فى زمن الصحابة وصدر التابعين، وإنما حدثت بعد سنة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجلة التابعين ﷺ وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين، بل كان الأولون يكرهون كتب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن

---

(١٨٥) حديث : « ما من أحد إلا ويؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله ﷺ » أورده صاحب القوت بلفظ : « ليس أحد إلا ويؤخذ من قوله ويترك » والباقى سواء، **وقال العراقى** : رواه الطبرانى فى الكبير من رواية مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس رفعه فساقه بلفظ القوت وإسناده حسن .

وعن التدبر والتذكر، وقالوا: احفظوا كما كنا نحفظ، ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة ﷺ تصحيف القرآن فى مصحف، وقالوا: كيف نفعل شيئًا ما فعله رسول الله ﷺ وخافوا اتكال الناس على المصاحف، وقالوا: نترك القرآن يتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإقراء ليكون هذا شغلهم وهمهم حتى أشار عمر ﷺ وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفًا من تخاذل الناس وتكاسلهم، وحذرًا من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه فى كلمة أو قراءة من المتشابهات ، فانشرح صدر أبى بكر ﷺ لذلك فجمع القرآن فى مصحف واحد. وكان أحمد ابن حنبل ينكر على مالك فى تصنيفه الموطأ، ويقول: ابتدع ما لم تفعله الصحابة ﷺ .

وقيل: أول كتاب صنّف فى الإسلام كتاب ابن جريج فى الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس ﷺ بمكة، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعانى باليمن جمع فيه سننًا مأثورة نبوية، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس، ثم جامع سفيان الثورى، ثم فى القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض فى الجدال والغوص فى إبطال المقالات، ثم مال الناس إليه وإلى القصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين فى الاندراس من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكايد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقلون، فصار يسمى المجادل المتكلم عالمًا والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره، ولم تكن سيرة الصحابة ﷺ وعلومهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم، فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف، وأصبح علم الآخرة مطويًا وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم؛ كانوا إذا قيل لهم: فلان أعلم أم فلان؟ يقولون فلان أكثر علما وفلان أكثر كلامًا، فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام، هكذا ضعف الدين فى قرون سالفة فكيف الظن بزمانك هذا وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت.

ومنها أن يكون شديد التوقى من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يغرنَّه إطباق الخلق على ما أُحدِث بعد الصحابة ﷺ ، وليكن حريصًا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثرهم أكان فى التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولِّى الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم فى العشرة أم كان فى الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن، واعلم تحقيقًا أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أُخذ الدين، ولذلك قال على ﷺ: خيرنا أتبعنا لهذا الدين، لما قيل له: خالفت فلانًا. فلا ينبغى أن يكترث بمخالفة أهل العصر فى موافقة أهل عصر رسول الله ﷺ فإن الناس رأوا رأيًا فيما هم فيه لميل طباعهم إليه ولم تسمح نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادّعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواه، ولذلك قال الحسن: محدثان أحدثا فى الإسلام: رجل ذو رأى سيئ زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومترف يعبد الدنيا لها يغضب ولها يرضى وإياها يطلب، فارفضوهما إلى النار وإن رجلا أصبح فى هذه الدنيا بين مترف يدعوه إلى دنياه وصاحب هوى يدعوه إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يحن إلى السلف الصالح، يسأل عن أفعالهم ويقتفى آثارهم - متعرض لأجر عظيم، فكذلك كونوا.

وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومسندًا أنه قال: **«إنما هما اثنتان: الكلام والهدى، فأحسن الكلام كلام الله تعالى،وأحسن الهدى هَدى رسول الله ﷺ ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور فإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة وإن كل بدعة ضلالة، ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، ألا كل ما هو آت قريب، ألا إن البعيد ما ليس بآت»** (١٨٦).

(١٨٦) حديث : « إنما هما اثنان : الكلام والهدى » هكذا أورده صاحب القوت ، **وقال العراقى :** رواه ابن ماجه من رواية أبى إسحق السبيعى عن أبى الأحوص ،عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : فذكره إلا أنه قال ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وقال : ألا إن ما هو آت قريب وإنما البعيد ما ليس بآت، وزاد: ألا إنما الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره . . . الحديث وإسناده جيد ، وزاد الطبرانى بعد قوله : وكل بدعة=

= ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . اهـ. والحديث طويل وفى آخره بعد قوله من وعظ بغيره: ألا إن قتال المؤمن كفر وسبابه فسوق ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ألا وإياكم والكذب فإن الكذب لا يصلح لا بالجد ولا بالهزل، ألا لا يعد الرجل صبيه فلا يفى له ،وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإنه يقال للصادق صدق وبر، ويقال للكاذب كذب وفجر، ألا وإن العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا هكذا عند ابن ماجه بطوله ، وأخرجه اللالكائى فى السنة من هذا الطريق إلى قوله : « فتقسو قلوبكم » ، وفيه: أن كل محدثة، بلا واو وفيه: ألا لا يطول، من غير نون ثقيلة ، وأخرج أيضا من رواية الأعمش عن جامع بن شداد عن الأسود ابن هلال قال: قال عبد الله : إن أحسن الهدى هدى محمد ، وإن أحسن الكلام كلام الله،وإنكم ستحدثون ويحدث لكم فكل محدثة ضلالة وكل ضلالة فى النار ، وأخرج أبو نعيم فى الحلية من رواية عمرو بن ثابت عن عبد الله بن عابس قال: قال عبد الله بن مسعود : إن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ ، وخير الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وخير القصص القرآن ، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثاتها . . . الحديث بطوله ، **قال العراقى** : وفى الباب عن جابر بن عبد الله رواه مسلم والنسائى وابن ماجه من رواية جعفر ابن محمد عن أبيه عن جابر قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه . . الحديث وفيه: ويقول : أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة .

قال مرتضى : وأخرج أبو داود والترمذى واللالكائى وأبو بكر الآجرى وعياض فى الشفاء من طريقه كلهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب . . . فساقوا الحديث وفيه وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة» ، وأخرج اللالكائى فى السنة من رواية سفيان بن عيينة عن هلال الوزان حدثنا عبد الله بن حكيم وكان قد أدرك الجاهلية قال: أرسل إليه الحجاج يدعوه فلما أتاه قال : كيف كان عمر يقول ؟ قال : كان عمر يقول : إن أصدق القيل قيل الله ألا وإن أحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة ضلالة ألا وإن الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، ولم يقم الصغير على الكبير، فإذا قام الصغير على الكبير فُقدَ . وأخرج أيضًا من رواية واصل الأحدب عن عاتكة بنت جزء قالت : أتينا ابن مسعود فسألناه عن الدجال قال: أنا لغير الدجال أخوف عليكم من الدجال أمور تكون من كبرائكم، فأيما مرية ورجيل أدرك ذلك الزمان فالسمت الأول، السمت الأول فأنا اليوم على السنة ، وأخرج أيضًا من حديث معاذ: ستكون فتنة . . . الحديث ، وفيه : فإياكم وما ابتدع فإن ما ابتدع ضلالة .

وفى خطبة رسول الله ﷺ : « **طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكم، وجانب أهل الزلل والمعصية، طوبى لمن ذل فى نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة** » (١٨٧).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: حسن الهدى فى آخر الزمان خير من كثير من العمل، وقال: أنتم فى زمان خيركم فيه المسارع فى الأمور، وسيأتى بعدكم زمان يكون خيرهم فيه المتثبت المتوقف لكثرة الشبهات. وقد صدق، فمن لم يتوقف فى هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وخاض فيما خاضوا فيه هلك كما هلكوا .

---

(١٨٧) حديث : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» هكذا أورده صاحب القوت بلفظ وفى خطبة النبى ﷺ التى رويناها وفيه بعد قوله وخالط أهل الفقه والحكمة زيادة: وجانب أهل الذل والمعصية ، **وقال العراقى**: فيه عن الحسين بن على وأبى هريرة وركب المصرى ، أما حديث الحسين بن على فرواه أبو نعيم فى الحلية من رواية القاسم بن محمد بن جعفر عن آبائه من أهل البيت إلى الحسين بن على قال : رأيت رسول الله ﷺ خطيبًا على أصحابه . . . فذكره بزيادة فى أوله وهى: كأن الموت فى هذه الدنيا على غيرنا كتب . . . الحديث ، وفيه: طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى البدعة ، وأما حديث أبى هريرة فرواه ابن لال فى مكارم الأخلاق من رواية عصمة بن محمد الخزرجى عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار عن أبى هريرة رفعه فساقه بمثل حديث الحسين بن على ،وأما حديث ركب المصرى فرواه الطبرانى والبيهقى من رواية إسماعيل بن عياش عن عنبسة بن سعيد الكلاعى عن نصيح العبسى عن ركب المصرى رفعه : « طوبى لمن تواضع فى غير منقصة، وذل فى نفسه من غير مسكنة ، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية، ورحم المساكين وخالط أهل الفقه والحكمة، طوبى لمن ذل فى نفسه وطاب كسبه وصلحت سريرته وكرمت علانيته وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله » ، وأما حديث أنس فرواه البزار فى مسنده مختصرًا بإسناد ضعيف ولفظه « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة » . اهـ .

قال مرتضى : وحديث ركب أخرجه أيضًا البخارى فى التاريخ والبغوى فى معجم الصحابة والباوردى وابن قانع ، وأخرج أبو نعيم فى الحلية من رواية كثير بن هشام عن جعفر بن برقان قال : بلغنا أن وهب بن منبه كان يقول: طوبى لمن فكر فى عيبه عن عيب غيره ، وطوبى لمن تواضع لله عز وجل من غير معصية ، وجالس أهل العلم والحلم وأهل الحكمة ووسعته السنة ولم يتعدها إلى البدعة .

وقال حذيفة ﷺ : أعجب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى، وأن منكركم اليوم مـعروف زمان قد أتى، وإنكم لا تزالون بخـير ما عرفـتم الحق، وكان العالم فيكـم غير مستخف به. ولقد صدق، فإن أكثر مـعروفات هذه الأعصار منكرات فى عصر الصحابة ﷺ، إذ من غرر المعـروفات فى زماننا تزيين المساجـد وتنجيدها، وإنفاق الأموال العظيـمة فى دقائق عماراتها وفـرش البسط الرفيعة فيهـا، ولقد كان يعد فرش البوارى فى المسـجد بدعة، وقيل إنه من محـدثات الحجاج، فـقد كان الأولـون قلما يجعلون بينهـم وبين التراب حاجـزًا. وكذلك الاشتـغال بدقائق الجدل والمنـاظرة من أجل علوم أهل الزمان ويزعمـون أنه من أعظم القربات وقد كان من المـنكرات، ومن ذلك التلحين فى القرآن والأذان، ومن ذلك التعـسف فى النظافة والوسوسة فى الطهارة وتقدير الأسـباب البعيدة فى نجاسة الثيـاب مع التساهل فى حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك، ولقد صدق ابن مسـعود ﷺ حيث قال: أنتم اليوم فى زمان الهوى فيه تابع للعلـم، وسيأتى عليكم زمان يكون العلم فيـه تابعًا للهوى. وقد كـان أحمد بن حنبل يقول: تركوا العلم وأقـبلوا على الغرائب ما أقل العلم فيـهم، والله المستعـان. وقال مالك بن أنس رحمه الله: لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم، ولم يكن العلماء يقـولون حرام ولا حلال، ولكن أدركتـهم يقولون مستـحب ومكروه. ومعناه أنهم كانوا ينظرون فى دقائق الكراهة والاستحباب، فـأما الحرام فكان فحشه ظاهرًا. وكان هشام بن عروة يقول: لا تسـألوهم اليوم عما أحـدثوه بأنفسهم فإنهم قد أعـدوا له جوابًا، ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفـونها. وكان أبو سليمان الدارانى رحمـه الله يقول: لا ينبغى لمن ألهم شيئًا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به فى الأثر فيحمد الله تعالى إذ وافق ما فى نفسه. وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرع الأسـماع وعلق بالقلوب، وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقًا فيحـتاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار، ولهذا لما أحدث مروان المنبر فى صلاة العـيد عند المـصلى قام إليـه أبو سعـيد الخدرى ﷺ، فـقال: يا مـروان، ما هذه البدعـة؟ فقال: إنها ليـست ببدعة إنها خـير مما تـعلم، إن الناس قد كثروا فـأردت أن يبلغهم الصوت، فقال أبو سعيد: والله لا تأتون بخير مما أعلم أبدًا والله لا صليت وراءك اليوم، وإنما

أنكر ذلك عليه لأن رسول الله ﷺ : **«كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا، لا على المنبر»** (١٨٨).

وفى الحديث المشهور: **« من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد»** (١٨٩) ، وفى خبر آخر: **«من غش أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» قيل: يا رسول الله، وما غش أمتك؟ قال: « أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها »** (١٩٠).

---

(١٨٨) حديث : « كان يتوكأ فى خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر» روى أبو داود من رواية شعيب بن زريق الطائفى قال : جلست إلى رجل له صحبة يقال له الحكم ابن حزن الكلبى فأنشأ يحدثنا فذكر حديثا فيه: فأقمنا بها أيامًا شهدنا فيها الجمعة مع النبى ﷺ فقام يتوكأ على عصا أو قوس فحمد الله وأثنى عليه وروى الطبرانى فى الصغير من رواية عبد الرحمن بن عمار بن سعد بن قرظ قال : حدثنى أبى عن جدى عن أبيه سعد أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب فى العيدين خطب على قوس وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا ، ورواه ابن ماجه بلفظ: كان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس، وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا ، ورواه الحاكم فى المستدرك من رواية عبد الله بن عمار بن سعد القرظى قال : حدثنى أبى عن جدى أن رسول الله ﷺ فذكر حديثًا طويلا فيه « وكان إذا خطب فى الحرب خطب على قوس ،وإذا خطب فى الجمعة خطب على عصا » وروى الطبرانى فى الكبير من رواية أبى خباب الكلبى قال: حدثنى يزيد بن البراء عن أبيه قال : كنا جلوسًا ننتظر النبى ﷺ يوم أضحى، إلى أن قال: ثم أعطى قوسا أو عصا اتكأ عليه ، ... الحديث قاله العراقى والحافظ ابن حجر .

قال مرتضى : وبمثل رواية الحاكم وأبى داود أخرجه البيهقى فى السنن ، وأخرج الشافعى فى مسنده فى باب إيجاب الجمعة، عن عطاء مرسلا: كان إذا خطب يعتمد على عنزة أو عصا، قال ابن القيم: ولم يحفظ عنه ﷺ أنه توكأ على سيف خلافًا لبعض الجهلة .

(١٨٩) حديث : « من أحدث فى ديننا ما ليس فيه فهو رد» أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه من رواية سعد بن إبراهيم عن القاسم عن عائشة عن النبى ﷺ بلفظ فى أمرنا ما ليس منه وقال أبو داود : ما ليس فيه ، وفى رواية لمسلم: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد: **قاله العراقى** .

قال مرتضى : الذى فى روايتهم: فى أمرنا هذا ، وقوله : رد، أى مردود ، وهذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده، قال النووى : ينبغى حفظه واستعماله فى إبطال المنكرات .

(١٩٠) حديث : « من غش أمتى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» قيل: يا رسول الله، وما غش أمتك ؟ قال : « أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها » هكذا أورده صاحب القوت، =

وقال رسول الله ﷺ : «**إن لله عز وجل ملكًا ينادى كل يوم: من خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعته**» (١٩١)، ومثال الجانى على الدين بإبداع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبًا مثال من عصى الملك فى قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره فى خدمة معينة وذلك قد يغفر له فأما قلب الدولة فلا، وقال بعض العلماء ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف، وقال غيره: الحق ثقيل من جاوزه ظلم، ومن قصَّر عنه عجز، ومن وقف معه اكتفى.

وقال ﷺ : « **عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ويرتفع إليه التالى** » (١٩٢)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضلالة لها حلاوة فى قلوب أهلها، قال الله تعالى:

= **وقال العراقى والسيوطى** : أخرجه الدارقطنى فى الأفراد من رواية محمد بن المنكدر بن محمد عن أبيه عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ﷺ . . . فذكره إلا أنه قال : قيل: يا رسول الله، وما الغش ؟ قال : « أن يبدع لهم بدعة ضلالة فيعمل بها»، قال الدارقطنى : غريب من حديث محمد بن المنكدر عن أنس تفرد به ابن المنكدر .

(١٩١) حديث : « إن لله ملكا ينادى كل يوم: من خالف سنة محمد ﷺ لم ينل شفاعته » **قال العراقى** : لم أقف له على أصل .

قال مرتضى : أورده هكذا صاحب القوت بلفظ: وروينا عن النبى ﷺ وفيه: من خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعة رسول الله ، وفى بعض النسخ: لم تنله شفاعته ووجدت بخط بعض المحدثين ما نصه: رواه الخطيب فى أثناء حديث بسند فيه مجهول، وقال الذهبى: هو خبر كذب .

(١٩٢) حديث : « عليكم بالنمط الأوسط الذى يرجع إليه العالى ويرتفع إليه التالى » **قال العراقى**: لم أجده مرفوعًا وإنما هو موقوف على على بن أبى طالب رضي الله عنه ، رواه أبو عبيد فى غريب الحديث بلفظ « خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق بهم التالى ويرجع إليهم الغالى » ورجال إسناده ثقات إلا أن فيه انقطاعا . ا هـ .

قال مرتضى : والمصنف أخذه من القوت ولفظه : وقال علىّ كرّم الله وجهه . . . فساقه، وأورده الجوهرى فى الصحاح فقال: وفى الحديث . . . فساقه كسياق أبى عبيد ، وقد جاء فى حديث مرفوع « خير الناس هذا النمط الأوسط . . .» وقد ذكرته فى شرح القاموس، وأخرج أبو نعيم فى الحلية من رواية إسماعيل بن عبد الكريم قال : حدثنى عبد الصمد سمعت وهبا يقول : إن لكل شىء طرفين ووسطا، فإذا أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسكت=

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ (الأنعام: ٧٠).

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر: ٨).

فكل ما أُحدث بعد الصحابة ﷺ مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو، وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده فى وقت الصحابة ﷺ فرجعوا إليه محسورين، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء ما نصيب منهم شيئًا وقد أتعبونا، فقال: إنكم لا تقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا تنزيل ربهم، ولكن سيأتى بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم، فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليه منكسين، فقالوا: ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشىء بعد الشىء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا فى الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات، فقال: إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيئًا لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم ولكن سيأتى بعد هؤلاء قوم تقر عينكم بهم تلعبون بهم، لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم، إن استغفروا لم يُغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم حسنات، قال: فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها دينًا، لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوهم أين شاءوا.

فإن قلت: من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدّثه بذلك؟ فاعلم أن أرباب القلوب يُكاشَفون بأسرار الملكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورود عليهم من حيث لا يعلمون، وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة فى اليقظة على سبيل كشف المعانى بمشاهدة الأمثلة كما يكون فى المنام وهذا أعلى الدرجات وهى من درجات النبوة العالية كما أن الرؤيا الصادقة، جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة، فإياك أن

= بالوسط اعتدل الطرفان، ثم قال: عليكم بالأوسط من الأشياء. اهـ. والنمط: الطريقة، يقال: الزم هذا النمط، أى هذا الطريق، والغالى إن كان بالغين المعجمة فمن الغلو وهو التجاوز والإفراط، وإن كان بالعين المهملة فمن العلو بمعنى ارتفاع الشأن، والتالى من تلاه، وقال أبو عبيد: معنى قول على أنه الغلو والتقصير فى الدين إذا تبعه.

يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك ففيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول، فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجا عن الدين بالكلية، قال بعض العارفين إنما انقطع الأبدال فى أطراف الأرض واستتروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء، قال سهل التسترى رضي الله عنه: « إن من أعظم المعاصى الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة» وكل عالم خاض فى الدنيا فلا ينبغى أن يُصغى إلى قوله بل ينبغى أن يُتهم فى كل ما يقول لأن كل إنسان يخوض فيما أحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه ولذلك قال الله عز وجل:

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨) . والعوام العصاة أسعد حالا من الجهال بطريق الدين المعتقدين أنهم من العلماء، لأن العامى العاصى معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب، وهذا الجاهل الظان أنه عالم فإن ما هو مشتغل به من العلوم التى هى وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر بل لا يزال مستمرا عليه إلى الموت، وإذ غلب هذا على أكثر الناس - إلا من عصمه الله تعالى - وانقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لذى الدين المحتاط العزلة والانفراد عنهم كما سيأتى فى كتاب العزلة بيانه إن شاء الله تعالى، ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشى: ما ظنك بمن بقى لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آثمًا أو كانت مذاكرته معصية، وذلك أنه لا يجد أهله. ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر،وإن أحسن أحواله أن يفيد علمًا أو يستفيده، ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لا تخلو عن شوائب الرياء وطلب الجمع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك، آلة إلى طلب الدنيا ووسيلة إلى الشر فيكون هو معينًا له على ذلك وردءًا وظهيرًا ومهيئًا لأسبابه كالذى يبيع السيف من قطاع الطريق، فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للغزو، ولذلك لا يرخص له فى البيع ممن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستعانة على قطع الطريق.

فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف، فكن أحد رجلين: إما متصفًا بهذه الصفات أو معترفًا بالتقصير مع الإقرار به، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن بدلت آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين، وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين، نعوذ بالله من خدع الشيطان فبها هلك الجمهور، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ولا يغره بالله الغرور.

★ ★ ★

الباب السابع

فى العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه

بيان شرف العقل

اعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف فى إظهاره لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل، والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين، فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة، أو كيف يستراب فيه، والبهيمة مع قصور تمييزها تحتشم العقل حتى أن أعظم البهائم بدنًا وأشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشمه وهابه لشعوره باستيلائه عليه لما خُص به من إدراك الحيل. ولذلك قال ﷺ: «الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته»(١٩٣)، وليس ذلك لكثرة

(١٩٣) حديث «الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته»، قال السخاوى فى المقاصد: جزم شيخنا وغيره بأنه موضوع وإنما هو من كلام بعض السلف، وربما أورد بلفظ: الشيخ فى جماعته كالنبى فى قومه يتعلمون من علمه، ويتأدّبون من آدابه. وكله باطل. أ هـ. **وقال العراقى**: وسئل عنه الشيخ تقى الدين بن تيمية فى جملة أحاديث، فأجاب بأنه لا أصل له، ثم **قال العراقى**: وقد روى من حديث ابن عمر وأبى رافع، أما حديث ابن عمر فرواه ابن حبان فى تاريخ الضعفاء من رواية عبد الله بن عمر بن غانم عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال: فذكره، أورده فى ترجمة ابن غانم المذكور قاضى أفريقية، وقال: روى عن مالك ما لم يحدث به مالك قط، لا يحل ذكر حديثه ولا الرواية عنه فى الكتب إلا على سبيل الاعتبار، **قال العراقى**: روى له أبو داود فى سننه وقال: أحاديثه مستقيمة، وذكره ابن يونس فى تاريخ مصر، وقال: إنه أحد الثقات الأثبات ومع ذلك فالحديث باطل، ولعل الآفة فيه من الراوى عن ابن غانم وهو عثمان ابن محمد بن خشيش القيروانى، قاله الذهبى فى الميزان. وأما حديث أبى رافع فرواه ابن عساكر فى معجمه والديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد ابن عبد الملك الكوفى، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبيه عن رافع بن أبى رافع عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيخ فى أهله كالنبى فى قومه» ومحمد بن عبد الملك يعرف بالقناطرى كذاب، وفى الميزان: حديث باطل. أ هـ.
=

ماله ولا لكثرة شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التى هى ثمرة عقله، ولذلك ترى الأتراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع، ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله ﷺ فلما وقعت أعينهم عليه واكتحلوا بغرته الكريمة هابوه وتراءى لهم ما كان يتلألأ على ديباجة وجهه من نور النبوة، وإن كان باطنًا فى نفسه بطون العقل فشرف العقل مدرك بالضرورة، وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات فى ذكر شرفه، وقد سماه الله نورًا فى قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ (النور: ٣٥).

وسمى العلم المستفاد منه روحًا ووحيًا وحياة، فقال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى: ٥٢).

وقال سبحانه:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله:

﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

وقال ﷺ : «**يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم، واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر**

= **قال مرتضى**: وحديث أبى رافع هذا أخرجه أيضا الخليلى فى مشيخته وابن النجار فى تاريخه، كلاهما من حديث أحمد بن يعقوب القرشى الجرجانى عن القناطرى، وقال ابن حبان: هو موضوع، وقال الزركشى: ليس هو من كلام النبى ﷺ ، وفى اللسان: قال الخليلى: هو موضوع، وأما حديث ابن عمر فأخرجه أيضا الشيرازى فى الألقاب، ولفظه: الشيخ فى بيته كالنبى فى قومه، هذا حال الحديث من جهة رواته قد حكم عليه بالوضع، ولكن معناه صحيح يؤيده قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، وقوله ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء»، وغير ذلك.

حقير الخطر دنىء المنزلة رث الهيئة، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزلة حسن الهيئة فصيحا نطوقًا، فالقردة والخنازير أعقل عند الله تعالى ممن عصاه، ولا تغتروا بتعظيم أهل الدنيا إياكم فإنهم من الخاسرين» (١٩٤).

وقال ﷺ : **«أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال الله عز وجل: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم علىَّ منك، بك آخذ، وبك أعطى، وبك أثيب، وبك أعاقب»** (١٩٥).

---

(١٩٤) حديث: «أيها الناس اعقلوا عن ربكم» **قال العراقى**: رويناه فى كتاب العقل لداود بن المحبر من رواية أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فذكره . . . إلا أنه قال: فإنهم عُدوا من الخاسرين، ورواه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده عن داود بن المحبر وداود بن المحبر اختلف فيه، فروى عباس الدورى عن يحيى بن معين أنه قال: مازال معروفا بالحديث ثم تركه وصحب قوما من المعتزلة فأفسدوه وهو ثقة، وقال أبو داود: ثقة شبه الضعيف، وقال أحمد: لا يدرى ما الحديث، وقال الدارقطنى: متروك، وروى عبد الغنى بن سعيد الأزدى المصرى عن الدارقطنى، قال: كتاب العقل وضعه أربعة أولهم ميسرة بن عبد ربه، ثم سرقه منه داود بن المحبر فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبد العزيز بن أبى رجاء فركبه بأسانيد أخر، ثم سرقه سليمان بن عيسى السنجرى فأتى بأسانيد أخر، أو كما قال، وعلى ما ذكره الدارقطنى فقد سرقه عن داود عبد العزيز بن أبى رجاء فاختصره وجعل له إسنادا آخر، فرواه عن مالك عن سهيل عن أبيه عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ : «ابن آدم أطع ربك تسمَّ عاقلا، وإن تعصه تسمَّ جاهلا» رواه أبو نعيم فى الحلية والخطيب فى أسماء من روى عن مالك من رواية ابن أبى رجاء المذكور، وقال الخطيب: منكر من حديث مالك، وقال الدارقطنى: عبد العزيز بن أبى رجاء متروك، وقال الذهبى فى الميزان: هذا باطل على مالك. أ هـ.

قال مرتضى: داود بن المحبر بن مخرم البكراوى يكنى أبا سليمان البصرى نزيل بغداد مات سنة ست ومائتين والمحبر كمحدث روى أبوه عن هشام بن عروة وروى ابنه داود عن شعبة وهمام وجماعة وعن مقاتل بن سليمان، وعنه أبو أمية والحرث بن أبى أسامة وجماعة، وأورد الذهبى فى الميزان من طريقه حديثا فى فضل قزوين أخرجه ابن ماجه فى سننه، ثم قال: لقد شان ابن ماجه سننه بإدخاله هذا الحديث الموضوع فيها. أ هـ. وكل من ميسرة وابن أبى رجاء وسليمان بن عيسى متروكون.

(١٩٥) حديث: «أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أكرم علىّ منك، بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك=

أعاقب»، قال الشيخ نجم الدين راويه رحمه الله تعالى: استدل به على أن العقل متهيئ لقبول الوحي والإيمان به، وفى رواية: وبك أعبد، إذ كان هو أول من اختص من الله بالوحى والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية والنبوة بإنباء الحق تعالى، إذ نبأه عن معرفة نفسه ومعرفة ربه، وإذا أمعنت النظر وأيدت بنور الله تحقق لك أن المعرفة بالعقل والموصوف باختصاص الوحى والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية والنبوة هو روح حبيب الله ونبيه محمد ﷺ فإنه الذى قال: أول ما خلق الله روحى، وفى رواية نورى، فروحه جوهر نورانى ونوره هو العقل وهو عرض قائم بجوهره، ومن هنا قال ﷺ: «كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد» أى لم يكن بعد روحا ولا جسدا، ومن هنا قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه، لأنه عرف نفسه بتعريف الله، إذ قال له: ما خلقت خلقا أحب إلىّ منك، وعرف الله أيضا بتعريف الله نفسه إياه إذ قال: وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أحب إلىّ منك، فعرف أنه الإله الذى من صفاته العزة والجلال والخالقية والمحبة، وهو المعروف لكل عارف وله القدرة والحكم على الأخذ والعطاء والثواب والعقاب وهو المستحق للعبادة، وقد جاء عن بعض الكبراء من الأئمة أن أول المخلوقات ملك كروبى يسمى العقل وهو صاحب القلم بدليل توجه الخطاب إليه فى قوله: أقبل فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر، ولما سماه قلما قال له: أخبر بما هو كائن إلى يوم القيامة، وتسميته قلما كتسمية صاحب السيف سيفا، ولا يبعد أن يسمى روح النبى ﷺ ملكا لغلبة صفات الملكية عليه كما يسمى جبريل عليه السلام روحا لغلبة الروحانية عليه، كقوله: فلان شعلة نار لحدة ذهنه، ويسمى عقلا لوفور عقله وقلما لكتابة المكونات ونورا لنورانيته، وقد يكون العقل فى اللغة بمعنى العاقل فعلى هذا التقدير والتأويل يكون روح النبى ﷺ هو المخلوق الأول ولكنه بهذه الاعتبارات ملك وعقل ونور وقلم، والقلم قريب المعنى من العقل، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، جاء فى التفسير عن بعضهم: أى بالعقل لأن الأشياء تعلم بالعقل، وفى قوله: أقبل.. إلخ، إشارة إلى أن للعقل إقبالا وإدبارًا فورث إقباله المقبلون وهم السابقون المقربون من الأنبياء والأولياء، وهم أصحاب الميمنة وهم أهل الجنة، وورث إدباره المدبرون وهم أصحاب المشأمة وهم أهل النار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الآية. والله أعلم، اهـ. كلامه سقته بتمامه لارتباط بعضه ببعض ولما فيه من الفوائد، وأما الكلام على تخريج الحديث **فقال العراقى**: روى من حديث أبى أمامة وعائشة وأبى هريرة وابن عباس والحسن عن عدة من الصحابة، فأما حديث أبى أمامة فرواه الطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى كتاب فضائل الأعمال من رواية سعيد بن الفضل القرشي حدثنا عمر بن أبى صالح العتكى عن أبى غالب عن أبى أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله العقل...» الحديث ولم يقل «وجلالى»: وقال: أعجب إلىّ منك، وقال: وبك الثواب وبك العقاب، وعمر بن أبى صالح ذكره العقيلى فى الضعفاء، وأورد له هذا الحديث، وقال الذهبى فى الميزان: لا يعرف، قال: ثم إن الراوى عنه من المنكرات، قال: =

فإن قلت: فهذا العقل، إن كان عرَضًا فكيف خُلق قبل الأجسام، وإن كان جوهرًا فكيف يكون جوهرًا قائمًا بنفسه ولا يتحيز، فاعلم أن هذا من علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: أثنى قوم على رجل عند النبى ﷺ حتى بالغوا، فقال ﷺ: **«كيف عقل الرجل»؟ فقالوا: نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله، فقال** ﷺ: **«إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العبَّاد غدًا فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم»** (١٩٦).

وعن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله»** (١٩٧).

= والخبر باطل. اهـ. **قال مرتضى**: ونص العقيلى فى الضعفاء: هذا حديث منكر، عمر وسعيد الراوى عنه مجهولان جميعا بالنقل ولا يتابع على حديثه ولا يثبت، **ثم قال العراقى**: وأما حديث عائشة فرواه أبو نعيم فى الحلية، قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن يحيى بن معاوية الطلحى بإفادة الدارقطنى عن سهل بن المرزبان بن محمد التميمى عن عبد الله بن الزبير الحميدى عن ابن عيينة عن منصور عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل...» فذكر الحديث، هكذا أورده فى ترجمة سفيان بن عيينة ولم أجد فى إسناده أحدًا مذكورًا بالضعف، ولا شك أن هذا مركب على هذا الإسناد ولا أدرى ممن وقع ذلك، والحديث منكر. اهـ.

قال مرتضى: ولفظ حديث عائشة على ما فى الحلية: قالت عائشة: حدثنى رسول الله ﷺ أن أول ما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال: ما خلقت شيئا أحسن إلىّ منك.

(١٩٦) حديث «أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ حتى بالغوا، فقال: كيف عقل الرجل...». **قال العراقى**: سلام هو ابن أبى الصهباء ضعفه ابن معين، وقال البخارى: منكر الحديث وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وأما أحمد فقال: إنه حسن الحديث، ورواه الحكيم الترمذى فى نوادره مختصرا قال: حدثنا مهدى حدثنا الحسين عن عبد ربه عن موسى بن أبان عن أنس بن مالك رفعه: «إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرب الناس الزلف على قدر عقولهم»، وفى إسناده جهالة. اهـ.

(١٩٧) حديث: «ما اكتسب رجل مثل فضل عقل...» **قال العراقى**: ورواه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده عن داود بن المحبر. اهـ. =

وقال ﷺ : «**إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس**»(١٩٨) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : «**لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته، أما سمعتم قول الفجار فى النار: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير**»(١٩٩) .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال لتميم الدارى: ما السؤدد فيكم؟ قال: العقل، قال: صدقت، سألت رسول الله ﷺ كما سألتك فقال كما قلت، ثم قال: «**سألت جبريل عليه السلام: ما السؤدد؟ فقال: العقل**» (٢٠٠) .

= **قال مرتضى**: وأخرجه البيهقى عن عمر ولفظه: ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط عنه أيضًا ولفظه: ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله.

(١٩٨) حديث: «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله، فعند ذلك يتم إيمانه وأطاع ربه وعصا عدوه إبليس»، ولفظ داود: يعنى إبليس، **قال العراقى**: ومقاتل بن سليمان المفسر ليس بشيء قاله يحيى بن معين، وقال الجوزجانى: كان دجالا جسورا، وقال البخارى: سكتوا عنه، وقال النسائى وابن حبان، كان يكذب، وقال ابن عيينة: سمعت مقاتلا يقول: إن لم يخرج الدجال فى سنة خمسين ومائة فاعلموا أنى كذاب، فيقال له: قد علمنا ذلك. وأول الحديث صحيح رواه أبو داود من رواية المطلب ابن عبد الله بن حنطب عن عائشة دون قوله: ولا يتم . . . إلخ وإسناده صحيح. ا هـ.

قال مرتضى: وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة بلفظ: إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل الظامئ بالهواجر. وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف، ورواه الحاكم من حديث أبى هريرة وقال: هو على شرطهما، وأقره الذهبى فى التلخيص.

(١٩٩) حديث: «لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه عز وجل، أما سمعتم قول الفاجر: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ قال البيضاوى: لو كنا نسمع كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتمادا على ما لاح من صدقهم بالمعجزات، أو نعقل فنفكر فى حكمه ومعانيه فكر المستبصرين ما كنا فى عداد أصحاب السعير ومن جملتهم، **قال العراقى**: ورواه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده عن داود. ا هـ .

(٢٠٠) حديث: «عن عمر رضي الله عنه أنه قال لتميم الدارى: ما السؤدد فيكم؟ قال: العقل» ولفظ داود: سألت جبريل عن السؤدد فى الناس، **قال العراقى**: ورواه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده عن داود، ورواه أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق عن عبد الرحمن بن حمدان الجلاب عن الحرث.

وعن البراء بن عازب ﷺ، قال: كثرت المسائل يومًا على رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس، إن لكل شيء مطية ومطية المرء العقل، وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا**»(٢٠١).

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة أُحد سمع الناس يقولون: فلان أشجع من فلان، وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا، فقال رسول الله ﷺ: «**أما هذا فلا علم لكم به**»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل، وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم، فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى، فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم**» (٢٠٢).

وعن البراء بن عازب أنه ﷺ قال: «**جدَّ الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل، وجدَّ المؤمنون من بني آدم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا**»(٢٠٣). وعن عائشة ﷺ، قالت: قلت: يا رسول الله، بم يتفاضل الناس في

---

(٢٠١) حديث: وقال داود بن المحبر أيضا في كتابه المذكور: حدثنا غياث بن إبراهيم عن الربيع بن لوط الأنصاري عن أبيه عن جده عن البراء بن عازب بن الحرث بن عدي الأوسي صحابي ابن صحابي نزل الكوفة مات سنة اثنتين وسبعين، قال: كثرت المسائل يوما على رسول الله ﷺ. ولفظ داود: كثرت المسائل على رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا أيها الناس إن لكل شيء مطية وأحسنكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا» **وعند العراقي**: أحسنهم وأفضلهم بضمير الغائب في الموضعين ولفظ داود: إن لكل شيء سبيل مطية وثيقة ومحجة واضحة، وأوثق الناس مطية وأحسنهم دلالة ومعرفة بالمحجة الواضحة أفضلهم عقلا، **قال العراقي**: رواه الحرث ابن أبي أسامة في مسنده عن داود، وغياث بن إبراهيم النخعي أحد الوضاعين.

(٢٠٢) حديث: «لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة أحد سمع الناس يقولون: فلان أشجع من فلان، وفلان أبلى ما لم يبل غيره ونحو ذلك، فقال النبي ﷺ: «أما هذا فلا علم لكم به»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل، وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى، فإذا كان يوم القيامة اقتسموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم»، ولفظ داود: على قدر حسن نياتهم، **قال العراقي**: ولعله سقط منه ذكر طاوس، وإلا فعبد الله بن طاوس إنما روى عن التابعين.

(٢٠٣) حديث: «جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه بالعقل، وجد المؤمنون من بني آدم» زاد=

الدنيا؟ قال: «**بالعقل**»، قلت: وفى الآخرة ؟ قال: «**بالعقل**»، قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ فقال ﷺ : «**يا عائشة، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل؛ فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون**» (٢٠٤) .

= داود هنا: «واجتهدوا فى طاعة ربهم على قدر عقولهم فأعملهم بطاعة الله عز وجل أوفرهم عقلا» **قال العراقى**: ورواه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده عن داود وهكذا غير داود عما حدث به ميسرة بن عبد ربه فجعله داود عن البراء بن عازب وإنما هو أبو عازب رجل آخر ذكر فى الصحابة، هكذا رواه أبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة قال: حدثنى محمد بن على الجوزجانى حدثنا حسين بن محمد أبو أحمد حدثنا ميسرة بن عبد ربه وحسين بن المروزى البغدادى ما علمنا فيه جرحا وقد أتاه أبو حاتم الرازى يسمع منه تفسير شيبان فلم يتفق فهو أولى من داود بن المحبر، والله أعلم. ا هـ .

قال مرتضى: وقد تقدم شيء من حال ميسرة وهو ميسرة بن عبد ربه الفارسى ثم البصرى التراس الأكال فى الميزان، قال ابن حبان كان: يروى الموضوعات عن الأثبات وهو واضع أحاديث فضائل القرآن، وقال أبو داود: أقر بوضع الحديث، وقال أبو زرعة، وضع فى فضل قزوين أربعين حديثا وكان يقول: أحتسب فى ذلك.

(٢٠٤) حديث: عن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله بم (وفى نسخة العراقى: بأى شيء) يتفاضل الناس فى الدنيا؟ قال: «بالعقل»، قلت: وفى الآخرة ؟ قال: «بالعقل» قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم؟ (ولفظ داود: بقدر أعمالهم) فقال: «ياعائشة، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله من العقل، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم وبقدر ما عملوا يجزون»، **قال العراقى**: رواه الحكيم الترمذى فى نوادره فقال: حدثنا محمد بن الحسن حدثنا أبى عن هشام ابن القاسم عن ميسرة عن عباد بن كثير عن محمد بن زيد، فزاد فى إسناده بين ميسرة ومحمد ابن زيد عباد بن كثير، ولفظه: بأى شيء يتفاضل الناس؟ قال: بالعقل فى الدنيا والآخرة.

قال مرتضى: أليس يجزى الناس بأعمالهم؟ قال: «يا عائشة، وهل يعمل بطاعة الله إلا من عقل، فبقدر عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يجزون». ا هـ. ثم قال: وفى اللآلئ المصنوعة للحافظ السيوطى الحرث بن أبى أسامة حدثنا داود بن المحبر حدثنا عباد بن كثير عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أنه دخل على عائشة فقال: يا أم المؤمنين، الرجل يقل قيامه ويكثر رقاده، وآخر يكثر قيامه ويقل رقاده أيهما أحب إليك؟ فقالت: سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى فقال: «أحسنهما عقلا» فقلت: يا رسول الله أسألك عن عبادتهما فقال: «يا عائشة، إنما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضل فى الدنيا والآخرة». قال ابن الجوزى: موضوع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل شيء آلة وعدة، وإن آلة المؤمن العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل، ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل، ولكل قوم داع وداعي العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل، ولكل أهل بيت قيم وقيم بيوت الصديقين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكل سفر فسطاط وفسطاط المؤمنين العقل»** (٢٠٥).

وقال ﷺ: **«إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه؛ فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح»**(٢٠٦).

وقال ﷺ: **«أتمكم عقلا أشدكم لله تعالى خوفًا وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرًا وإن كان أقلكم تطوعًا»**(٢٠٧).

---

(٢٠٥) حديث: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء آلة وعدة، وإن آلة المؤمن العقل . . .» **قال العراقي** ورواه الحرث بن أبي أسامة في مسنده عن داود.

(٢٠٦) حديث: «إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه» وعند داود بعد قوله عقله، وتفقه وصح يقينه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح، ولفظة داود: وعمل لله بدل به **قال العراقي**: رواه الديلمي في مسند الفردوس من رواية حبيب كاتب مالك عن محمد بن عبد السلام عن الزهري عن سالم عن أبيه فجعله من حديث عبد الله بن عمر، وحبيب بن أبي حبيب كاتب مالك متفق على ضعفه، وقال أبو داود: كان من أكذب الناس. ا هـ.

قال مرتضى: وزاد في الميزان: قال ابن عدي: أحاديثه كلها موضوعة، وقال ابن حبان: كان يورق بالمدينة على الشيوخ ويروي عن الثقات الموضوعات، كان يدخل عليهم ما ليس من حديثهم.

(٢٠٧) حديث: «أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا، وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرا» وأخرج ابن عدي من رواية محمد بن وهب الدمشقي، عن الوليد بن مسلم، عن مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه: «أكمل الناس عقلا أطوعهم لله وأعملهم بطاعته، وأنقص الناس عقلا أطوعهم للشيطان وأعملهم بطاعته»، قال في الميزان: هو حديث باطل منكر آفته من محمد بن وهب، وقال الدارقطني: هو حديث غير محفوظ، والله أعلم.

بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا فى حد العقل وحقيقته، وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم، والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة. وما يجرى هذا المجرى فلا ينبغى أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

فالأول: الوصف الذى يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذى استعدَّ به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذى أراده الحارث بن أسد المحاسبى حيث قال فى حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف فى القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا وردَّ العقل إلى مجرد العلوم الضرورية، فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم، وكما أن الحياة غريزة بها يتهيأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية، فكذلك العقل غريزة بها تتهيأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية، ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والحمار فى الغريزة والإدراكات الحسية، فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق فى الإنسان علوما وليس يخلقها فى الحمار والبهائم لجاز أن يسوى بين الحمار والجماد فى الحياة، ويقال لا فرق إلا أن الله عز وجل يخلق فى الحمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة، فإنه لو قدّر الحمار جمادًا ميتًا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد، وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقته للجماد فى الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذا مفارقة الإنسان البهيمة فى إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرآة التى تفارق غيرها من الأجسام فى حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهى الصقالة، وكذلك العين تفارق الجبهة فى صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية، ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة فى سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فهكذا ينبغى أن تفهم هذه الغريزة.

الثانى: هى العلوم التى تخرج إلى الوجود فى ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الشخص الواحد لا يكون فى مكانين فى

وقت واحد، وهو الذى عناه بعض المتكلمين حيث قال فى حد العقل إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وهو أيضا صحيح فى نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر، وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة، ويقال لا موجود إلا هذه العلوم.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجارى الأحوال فإن من حنَّكته التجارب وهذَّبته المذاهب، يقال إنه عاقل فى العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبى غمر جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا.

الرابع: أن تنتهى قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلا من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر فى العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضا من خواص الإنسان التى بها يتميز عن سائر الحيوان، فالأول هو الأس والسِّنْخ والمنبع، والثانى هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأول والثانى إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب، والرابع هو الثمرة الأخيرة والغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب، ولذلك قال علىّ كرم الله وجهه:

رأيت العقل عقلين .. فمطبوع ومسموع .. ولا ينفع مسموع

إذا لم يك مطبوع .. كما لا ينفع الشمس .. وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله ﷺ : **«ما خلق الله عز وجل خلقًا أكرم عليه من العقل»**(٢٠٨).

---

(٢٠٨) حديث: «ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل» **قال العراقى:** رواه الحكيم الترمذى فى النوادر بإسناد ضعيف من رواية الحسن البصرى قال: حدثنى عدة من أصحاب رسول الله ﷺ فذكر حديثا فيه أن الله تعالى قال: «ما خلقت خلقا أحب إلىّ منك ولا أكرم علىّ منك» الحديث، قد تقدم فى ثالث حديث الباب. ا هـ.

قال مرتضى: وأشار إلى أنه ضعيف لكون الترمذى المذكور رواه عن عبد الرحمن بن حبيب عن داود بن المحبر عن الحسن بن دينار قال: سمعت الحسن، ورجاله ما عدا الحسن هلكى، وقد رواه داود أيضا فى كتابه مرسلا، فقال: حدثنا صالح المرى عن الحسن فذكره.

والأخير هو المراد بقوله ﷺ : «إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك»[٢٠٩]. وهو المراد بقول رسول الله ﷺ لأبى الدرداء ﷺ : «ازدد عقلا تزدد من ربك قربا»، فقال: بأبى أنت وأمى وكيف لى بذلك؟ فقال: «اجتنب محارم الله تعالى، وأدّ فرائض الله سبحانه تكن عاقلا، واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة، وتنل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز»[٢١٠] .

وعن سعيد بن المسيب، أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة ﷺ دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، من أعلم الناس؟ فقال ﷺ : «العاقل»، قالوا: فمن أعبد الناس؟ قال: «العاقل»، قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: «العاقل»، قالوا: أليس العاقل من تمت مروءته، وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته؟ فقال ﷺ : «وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين، إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسًا ذليلاً»[٢١١].

---

(٢٠٩) حديث: «إذا تقرب الناس بأبواب البر فتقرب أنت بعقلك» ولفظ الذريعة: إذا تقرب الناس إلى خالقهم بالبر فتقرب إليه أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الله فى الدنيا والآخرة. ا هـ. وأخرج ابن نعيم بإسناد ضعيف من رواية عاصم بن ضمرة عن على ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكتسب أنت أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقربة»، وفى الجزء الثالث من أمالى أبى القاسم ابن عليك النيسابورى قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمى أخبرنا محمد بن منصور العتكى حدثنا محمد بن أشرس السلمى حدثنا سليمان بن عيسى السنجرى عن سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن عاصم بن ضمرة عن ﷺ عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا اكتسب الناس إلى خالقهم بأنواع البر فاكتسب إليه بأنواع العقل تسبقهم بالقربة والراحة والدرجات فى الدنيا.

(٢١٠) حديث: «ازدد عقلا تزدد قربا» قال العراقى: وأبان بن أبى عياش ضعيف، وقد رواه بسياق المصنف داود بن المحبر فى كتاب العقل، ومن طريقه رواه الحرث بن أبى أسامة فى مسنده. ا هـ.

قال مرتضى: وأخرج البيهقى وابن عدى من حديث ابن مسعود رفعه: «أدِّ ما افترض الله عليك تكن من أعبد الناس، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أورع الناس، وارض بما قسمه الله لك تكن من أغنى الناس».

(٢١١) حديث: أن عمر وأبى بن كعب وأبا هريرة ﷺ دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، من أعلم الناس؟ فقال: «العاقل» قال العراقى: وقول المصنف عن ابن المسيب: يريد أنه مرسل وهو كذلك.

وقال ﷺ في حديث آخر: «**إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته**» (٢١٢)

ويشبه أن يكون أصل الاسم فى أصل اللغة لتلك الغريزة، وكذا فى الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها ثمرتها كما يعرف الشيء بثمرته فيقال: العلم هو الخشية، والعالم من يخشى الله تعالى فإن الخشية ثمرة العلم فتكون كالمجاز لغير تلك الغريزة، ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة، والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة، والاسم يطلق على جميعها، ولا خلاف فى وجود جميعها إلا فى القسم الأول، والصحيح وجودها بل هى الأصل، وهذه العلوم كأنها مضمنة فى تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر فى الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت، ومثاله الماء فى الأرض فإنه يظهر بحفر البئر ويجتمع ويتميز بالحس لا أن يساق إليها شيء جديد، وكذلك الدهن فى اللوز وماء الورد فى الورد، ولذلك قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة، فإنهم انقسموا فى إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى مُقر وإلى جاحد، ولذلك قال تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (الزخرف: ٨٧).

معناه إن اعتبرت أحوالهم شهدت بذلك نفوسهم وبواطنهم، ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم: ٣٠).

أى كل آدمى فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ما هى عليه، أعنى أنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك، ثم لما كان الإيمان مركوزاً فى النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين: إلى من أعرض فنسى وهم الكفار، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان

---

(٢١٢) حديث «إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته» **قال العراقى**: رواه ابن المحبر من حديث سعيد بن المسيب مرسلا، وفيه قصة.

كمن حمل شهادة فنسيها بغفلة ثم تذكرها، ولذلك قال عز وجل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٢٢١) ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص: ٢٩)، ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ (المائدة: ٧)، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧).

وتسمية هذا النمط تذكرا ليس ببعيد فكأن التذكر ضربان أحدهما أن يكون صورة كانت حاضرة الوجود فى قلبه لكن غابت بعد الوجود، والآخر أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة، وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستر وجه السماع والتقليد دون الكشف والعيان، ولذلك تراه يتخبط فى مثل هذه الآيات ويتعسف فى تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعا من التعسفات، ويتخايل إليه فى الأخبار والآيات ضروبًا من المناقضات، وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحقار ويعتقد فيها التهافت، ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل دارًا فيعثر فيها بالأوانى المصفوفة فى الدار، فيقول: ما لهذه الأوانى لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها؟ فيقال له: إنها فى مواضعها وإنما الخلل فى بصرك، فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطمّ منه وأعظم، إذ النفس كالفارس والبدن كالفرس، وعمى الفارس أضر من عمى الفرس، ولمشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (النجم: ١١).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٧٥).

وسمى ضده عمى فقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الاسراء: ٧٢).

وهذه الأمور التى كُشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها كان بالبصيرة وسمى الكل رؤية، وبالجملة من لم تكن بصيرة الباطنة ثاقبة لم يعلق بها من الدين إلا قشوره وأمثلته دون لبابه وحقائقه، فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها.

بيان تفاوت النفوس في العقل

قد اختلف الناس فى تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قَلّ تحصيله، بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق، والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت يتطرق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى وهو العلم الضرورى بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضا استحالة كون الجسم فى مكانين وكون الشيء الواحد قديمًا حادثا، وكذا سائر النظائر، وكل ما يدركه إدراكا محققا من غير شك، وأما الأقسام الثلاثة فالتفاوت يتطرق إليها، أما القسم الرابع وهو استيلاء القوة على قمع الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يقدر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض، ولكن غير مقصور عليه، فإن الشاب قد يعجز عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه، وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لا ضعفا، وقد يكون سببه التفاوت فى العلم المعرف لغائلة تلك الشهوة، ولهذا يقدر الطبيب على الاحتماء عن بعض الأطعمة المضرة، وقد لا يقدر من يساويه فى العقل على ذلك إذا لم يكن طبيبا، وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة، ولكن إذا كان علم الطبيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جندا للعقل وعدة له فى قمع الشهوات وكسرها، وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصى من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصى، وأعنى به العالم الحقيقى دون أرباب الطيالسة وأصحاب الهذيان، فإن كان التفاوت من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل، وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه، وقد يكون بمجرد التفاوت فى غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قمعها للشهوة لا محالة أشد.

وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا ينكر فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك، ويكون سببه إما تفاوتا فى الغريزة وإما تفاوتا فى الممارسة، فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جحده، فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه ومبادى إشراقه عند سن التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفى التدريج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة، ومثاله نور الصبح فإن أوائله يخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى

الزيادة إلى أن يكمل بطلوع قرص الشمس، وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر، بل سُنة الله عز وجل جارية فى جميع خلقه بالتدريج، فى الإيجاد حتى أن غريزة الشهوة لا تظهر فى الصبى عند البلوغ دفعة وبغتة، بل تظهر شيئا فشيئا على التدريج وكذلك جميع القوى والصفات، ومن أنكر تفاوت الناس فى هذه الغريزة فكأنه منخلع عن ربقة العقل، ومن ظن أن عقل النبى ﷺ مثل عقل آحاد السوادية، وأجلاف البوادى فهو أخس فى نفسه من آحاد السوادية وكيف ينكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلفت الناس فى فهم العلوم، ولما انقسموا إلى بليد لا يفهم بالتفهيم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكى يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبعث من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم، كما قال تعالى:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ (النور: ٣٥).

وذلك مثل الأنبياء عليهم السلام إذ يتضح لهم فى بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام، وعن مثله عبَّر النبى ﷺ حيث قال: «**إن روح القدس نفث فى روعى: أحبب من أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به**» (٢١٣) وهذا النمط من تعريف الملائكة للأنبياء يخالف الوحى الصريح الذى هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر، ولذلك أخبر عن هذا بالنفث فى الروع، ودرجات الوحى كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المكاشفة، ولا تظنن

(٢١٣) حديث: «أحبب من أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به» وعند الطبرانى: فإنك ملاقيه، وفيه تقديم هذه الجملة على الثانية وفى آخره، وقال رسول الله ﷺ: أوجز لى جبريل فى الخطبة، قال: ولا يروى عن على إلا بهذا الإسناد، وقد روى هذا الحديث عن سهل بن سعد وسياق المصنف أشبه به إلا أن فيه تقديما وتأخيرا وزيادة فى الآخر، أخرجه الطبرانى أيضا فى الأوسط من رواية زافر بن سليمان عن محمد بن عيينة عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال: «يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس» وراويه عن زافر تابعه محمد بن حميد الرازى وتابعه عليه إسماعيل بن ثوبة فيما رواه الشيرازى فى الألقاب إلا أنه قال: واجمع ما شئت فإنك تاركه، بدل واعمل ما شئت.

أن معرفة درجات الوحى تستدعى منصب الوحى إذ لا يبعد أن يُعرف الطبيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة - وإن كان خاليا عنها - فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر، فلا كل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولا وليا، ولا كل من عرف التقوى والورع ودقائقه كان تقيا، وانقسام الناس إلى من يتنبه من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتنبيه وتعليم وإلى من لا ينفعه التعليم أيضا ولا التنبيه كانقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيقوى فيتفجر بنفسه عيونا وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس، وذلك لاختلاف جواهر الأرض فى صفاتها فكذلك اختلاف النفوس فى غريزة العقل، ويدل على تفاوت العقل من جهة النقل ما روى أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، **سأل النبى ﷺ فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت: «يا ربنا هل خلقت شيئا أعظم من العرش؟ قال: نعم العقل، قالوا: وما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لا يحاط بعلمه، هل لكم علم بعدد الرمل؟ قالوا: لا، قال الله عز وجل: فإنى خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك»** (٢١٤).

فإن قلت: فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة

---

(٢١٤) حديث: «سأل رسول الله ﷺ فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت: يا رب هل خلقت شيئا أعظم من العرش؟ قال: نعم العقل؟ قالوا: وما بلغ من قدره؟ قال: هيهات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل؟ قالوا: لا، قال تعالى: فإنى خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل، فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقًا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم أكثر من ذلك».
قال العراقى: رواه داود بن المحبر فى كتاب العقل، فقال: حدثنا ميسرة عن موسى بن جابان عن أنس بن مالك فذكره مع اختلاف يسير، ورواه الترمذى الحكيم فى النوادر مختصراً، فقال: حدثنا مهدى حدثنا الحسن عن منصور عن موسى بن خالد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق العقل أكبر من عدد الرمل، فمن الناس من أعطى حبة من ذلك، ومنهم من أعطى حبتين، ومنهم من أعطى مدا، ومنهم من أعطى صاعا، ومنهم من أعطى فرقا. وبعضهم وسقا» فقال ابن سلام: من هم يا رسول الله ؟ قال: «العمال بطاعة الله على قدر عقولهم ويقينهم وجدهم والنور الذى فى قلوبهم». ا هـ.

الكلام، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم فى التسمية إذ كان ذلك لا ينمحى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه فى القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم، فأما نور البصيـرة الباطنة التى بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكـيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه، وإن ذم فما الذى بعده يُحمد، فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع؟ فإن عـلم بالعقل المذموم الذى لا يوثق به فيكون الشـرع أيضا مذمومـا، ولا يلتفت إلى من يقـول إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعـقل، فإنا نريد بالعـقل ما يريده بعين الـيقين ونور الإيمان وهى الصفة الباطنة التى يتيمز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور، وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقـائق من الألفاظ، فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس فى الألفاظ فهذا القدر كاف فى بيان العقل. والله أعلم.

تم كتـاب «العلم» بحمـد الله تعالى ومَـنِّه، وصلى الله على سيـدنا محـمد وعلى كل عـبد مصطفى من أهل الأرض والسـماء، يتلوه إن شاء الله تعـالى كتاب «قـواعد العقائد»، والحـمد لله وحده أولاً وآخراً.







الكتاب الثاني

من ربع العبادات

كتاب قواعد العقائد

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب الثانى من ربع العبادات

كتاب قواعد العقائد، وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة التى هى أحد مبانى الإسلام

فنقول وبالله التوفيق: الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد، ذى العرش المجيد والبطش الشديد، الهادى صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثار صحبه الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد، المتجلى لهم فى ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التى لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، المعرّف إياهم أنه فى ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثيل له، صمد لا ضدّ له، منفرد لا ندّ له، وأنه واحد قديم لا أول له، أزلى لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدىّ لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفًا بنعوت الجلال، لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم.

التنزيه: وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودًا ولا يماثله موجود، ليس كمثله شىء ولا هو مثل شىء، وأنه لا يحده المقدار، ولاتحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون،

ولا السماوات، وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده، استواءً منزهًا عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال، لا يحمله العرش بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته، وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى، فوقية لا تزيده قربًا إلى العرش والسماء كما لا تزيده بعدًا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيعَ الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، وهو على كل شىء شهيد إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام، وأنه لا يحل فى شىء، ولا يحل فيه شىء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحدّه زمان، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان، وهو الآن على ما عليه كان، وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس فى ذاته سواه ولا فى سواه ذاته، وأنه مقدَّس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال فى نعوت جلاله منزهًا عن الزوال، وفى صفات كماله مستغنيًا عن زيادة الاستكمال، وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول، مرئى الذات بالأبصار نعمة منه ولطفًا بالأبرار فى دار القرار، وإتمامًا منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

الحياة والقدرة: وأنه تعالى حى قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت، له السلطان والقهر والخلق والأمر والسماوات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون فى قبضته، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع، خلق الخلق وأعمالهم، وقدَّر أرزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لا تحصى مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته.

العلم: وأنه عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السماوات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر فى جو الهواء، ويعلم

السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفًا به فى أزل الآزال لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال.

الإرادة: وأنه تعالى مريد للكائنات مدِّبر للحادثات، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو ضر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد الفعال لما يريد، لا راد لأمره ولا معقِّب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته، فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك، وأن إرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفًا بها مريدًا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدم ولا تأخر، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

السمع والبصر: وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق، ولا يحجب سمعه بُعْد، ولا يدفع رؤيته ظلام، يرى من غير حدقة وأجفان ويسمع من غير أصمخة وآذان، كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

الكلام: وأنه تعالى متكلمٌ آمرٌ ناهٍ واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام، ولا بحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأن القرآن مقروء بالألسنة، مكتوب فى المصاحف، محفوظ فى القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق،

وأن موسى - عليه السلام - سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر ولا عرَض، وإذا كانت له هذه الصفات كان حيًا عالما قادرًا مريدًا سميعًا بصيرًا متكلما بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات.

الأفعال: وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها، وأنه حكيم فى أفعاله عادل فى أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد، إذ العبد يُتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره، ولا يُتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلمًا، فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان وسماء وأرض وحيوان، ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس حادثٌ اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعًا وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئًا، إذ كان فى الأزل موجودًا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارًا لقدرته وتحقيقًا لما سبق من إرادته ولما حق فى الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته،وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان إذ كان قادرًا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب، ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه قبيحًا ولا ظلمًا، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يُتصور منه ظلم، ولا يجب لأحد عليه حق، وأن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة، فبلّغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به.

معنى الكلمة الثانية: وهى الشهادة للرسل بالرسالة وأنه بعث النبى الأمى القرشى محمدًا ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس فنسخ بشريعته الشرائع إلا ما قرره منها، وفضَّله على سائر الأنبياء، وجعله سيد البشر، ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول: لا إله إلا الله ما لم تقترن بها شهادة الرسول وهو قولك: محمد رسول الله، وألزم

الخلق تصديقه فى جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، وإنه لا يتقبل إيمان عبده حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت.

وأوله « **سؤال منكر ونكير** » (٢١٥) وهما شخصان مهيبان هائلان يُقعدان العبد فى قبره سويا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وهما «**فتّانا القبر**» (٢١٦) « **وسؤالهما أوّل فتنة بعد الموت**» (٢١٧).

وأن يؤمن « **بعذاب القبر**» (٢١٨) وأنه حق، وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء.

وأن يؤمن « **بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طبقات السماوات والأرض**» (٢١٩) توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل

---

(٢١٥) حديث : « سؤال منكر ونكير » رواه الترمذى وصححه وابن حبان من حديث أبى هريرة: إذا قبر الميت ـــ أو قال أحدكم ـــ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير. وفى الصحيحين من حديث أنس: إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه . . . الحديث.

(٢١٦) حديث : « إنهما فتانا القبر » رواه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ ذكر فتانى القبر فقال عمر: أترد علينا عقولنا ؟ الحديث .

(٢١٧) حديث : « إن سؤالهما أول فتنة بعد الموت » **قال العراقى**: لم أجده .

(٢١٨) حديث : « عذاب القبر » أخرجاه من حديث عائشة: « إنكم تفتنون أو تعذبون فى قبوركم. . . » الحديث ،ولهما من حديث أبى هريرة وعائشة استعاذته ﷺ من عذاب القبر .

(٢١٩) حديث : « الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته فى العظم أنه مثل طباق السماوات والأرض » رواه البيهقى فى البعث من حديث عمر قال : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان . . . » الحديث، وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ولأبى داود من حديث عائشة أما فى ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحدًا عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل زاد ابن مردويه فى تفسيره قالت عائشة : «أى حبى قد علمنا الموازين هى الكفتان فيوضع فى هذه الشىء ويوضع فى هذه الشىء فترجح إحداهما وتخف الأخرى »، ورواه والترمذى وحسنه من حديث أنس: واطلبينى عند الميزان. ومن حديث عبد الله بن عمر فى حديث البطاقة: « فتوضع السجلات فى كفة=

تحقيقًا لتمام العدل، وتوضع صحائف الحسنات فى صورة حسنة فى كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله، وتطرح صحائف السيئات فى صورة قبيحة فى كفة الظلمة فيخف بها الميزان بعدل الله.

« وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر ممدود على متن جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة » (٢٢٠) تزل عليه أقدام الكافرين بحكم الله سبحانه فتهوى بهم إلى النار، وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار.

«وأن يؤمن بالحوض المورود» (٢٢١) حوض محمد ﷺ يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط، **« ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، عرضه مسيرة شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق عددها بعدد نجوم**

= والبطاقة فى كفة . . . » الحديث، وروى ابن شاهين فى كتاب السنة عن ابن عباس: كفة الميزان كأطباق الدنيا كلها .

(٢٢٠) حديث : « الإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعر » **قال العراقى** : رواه الشيخان من حديث أبى هريرة : ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم. ولهما من حديث أبى سعيد: ثم يضرب الجسر على جهنم. زاد مسلم: قال أبو سعيد: إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف. ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقى فى الشعب والبعث من حديث أنس وضعفه وفى البعث من رواية عبيد بن عمير مرسلا ومن قول ابن مسعود الصراط كحد السيف، وفى آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع .

(٢٢١) حديث : « الإيمان بالحوض » وأنه يشرب منه المؤمنون، **قال العراقى** : رواه مسلم من حديث أنس فى نزول : ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم ولهما من حديث ابن مسعود وعقبة بن عامر وجندب وسهل بن سعد: أنا فرطكم على الحوض ،ومن حديث ابن عمر: أما لكم حوض كما بين جرباء وأدرج، وقال الطبرانى: كما بينكم وبين جرباء وأدرج وهو الصواب ،وذكر الحوض فى الصحيح من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وعبد الله بن عمرو وحذيفة وأبى ذر وحابس بن سمرة وحارثة ابن وهب وثوبان وعائشة وأم سلمة وأسماء .

السماء » (٢٢٢)، **« فيه ميزابان يصبان فيه من الكوثر »** (٢٢٣)، و**« أن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش فى الحساب وإلى مُسَامَح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب»** (٢٢٤) وهم المقرّبون، **« فيسأل الله تعالى من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين»** (٢٢٥)، **« ويسأل المبتدعة عن السنة»** (٢٢٦) ، **«ويسأل المسلمين عن**

---

(٢٢٢) حديث : « من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، عرضه مسيرة شهر، أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق عدد نجوم السماء » **قال العراقى** : من حديث عبد الله ابن عمرو ، ولهما من حديث أنس : فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء، **قال العراقى** : وفى رواية لمسلم أكثر من عدد نجوم السماء .

(٢٢٣) حديث : « فيه ميزابان يصبان من الكوثر » **قال العراقى** : رواه مسلم من حديث ثوبان: يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق .

(٢٢٤) حديث : « الإيمان بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش فى الحساب ومسامح فيه، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب » **قال العراقى** : رواه البيهقى فى البعث من حديث عمر فقال : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال :« أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث من بعد الموت والحساب والجنة والنار والقدر كله. . . » الحديث، وهو عند مسلم دون ذكر الحساب، وللشيخين من حديث عائشة : من نوقش الحساب عذِّب، قالت: قلت : أليس يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال: ذلك العرض ، ولهما من حديث ابن عباس: « عرضت علىّ الأمم فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ، ولمسلم من حديث أبى هريرة وعمران بن حصين: يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب، زاد البيهقى فى البعث من حديث عمرو بن حزم: وأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفًا، زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر بعده هذه الزيادة فقال : فهلا استزدته قال: قد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفًا، قال عمر: فهلا استزدته قال قد استزدته فأعطانى هكذا، وفرج عبد الرحمن بن أبى بكر بين يديه. . . الحديث .

(٢٢٥) حديث : « سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين » **قال العراقى** : رواه البخارى من حديث أبى سعيد: يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول : نعم: فيقال لأمته فيقولون : ما أتانا من نذير فيقول : من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته . . . الحديث ، ولابن ماجه: يجىء النبى يوم القيامة . . . الحديث وفيه: فيقال : هل بلغت قومك . . . الحديث .

(٢٢٦) حديث : « سؤال المبتدعة عن السنة » **قال العراقى** : رواه ابن ماجه من حديث عائشة: من=

الأعمال» (٢٢٧)، وأن يؤمن « **بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى فى جهنم موحِّد بفضل الله تعالى** » (٢٢٨) فلا يخلد فى النار موحد.

وأن يؤمن « **بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين**» (٢٢٩) كل على حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى، ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع أُخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد فى النار مؤمن ، بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم، « **وأن أفضل الناس بعد النبى ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضي الله عنهم** » (٢٣٠) .

= تكلم بشىء من القدر سئل عنه يوم القيامة ، ومن حديث أبى هريرة : ما من داع يدعو إلى شىء إلا وقف يوم القيامة لازمًا لدعوة ما دعا إليه، وإن دعا رجل رجلاً. وإسنادهما ضعيف.

(٢٢٧) حديث : « سؤال المسلمين عن الأعمال » **قال العراقى:** رواه أصحاب السنن من حديث أبى هريرة: إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته . . . الحديث، وسيأتى فى الصلاة .

(٢٢٨) حديث : « إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى فيها موحد بفضل الله سبحانه » **قال العراقى :** رواه الشيخان من حديث أبى هريرة فى حديث طويل: « حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله . . .» الحديث .

(٢٢٩) حديث : « شفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقى من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله، فلا يخلد فى النار مؤمن بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان » **قال العراقى :** رواه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء. وقد تقدم فى العلم ، وللشيخين من حديث أبى سعيد الخدرى من وجدتم فى قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه. وفى رواية: من خير، وفيه: فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط . . . الحديث .

(٢٣٠) حديث : « أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على » **قال العراقى :** رواه البخارى من حديث ابن عمر قال كنا نخيِّر بين الناس فى زمن=

« وأن يُحسن الظن بجميع الصحابة ويُثنى عليهم » [٢٣١] كما أثنى الله عز وجل ورسوله ﷺ عليهم أجمعين فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقنًا به كـان من أهل الحق وعصـابة السنة، وفارق رهط الضلال وحـزب البدعـة، فنسأل الله كمال اليقين وحُسن الثبات فى الدين لنا ولكافـة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى كل عبد مصطفى.

★ ★ ★

= النبى ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان . ولأبى داود: كنا نقول ورسول الله ﷺ حى : أفـضل أمة النبى ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عـثمان ﷺ. زاد الطبرانى ويسمع ذلك النبى ﷺ ولا ينكره .

(٢٣١) حديث : « إحسان الظن بجمـيع الصحابة والثناء عليهم » **قال العـراقى** : رواه الترمـذى من حديث عبد الله بن مغفل: « الله الله فى أصحابى لا تتخذوهم غرضا بعدى » وللشيخين من حديث أبى سـعيـد: « لا تسبـوا أصحابى » وللطبـرانى من حديث ابن مـسعـود: « إذا ذُكر أصحابى فأمسكوا » .

الفصل الثانى

فى وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

اعلم أن ما ذكرناه فى ترجمة العقيدة ينبغى أن يقدم إلى الصبى فى أول نشوه ليحفظه حفظا ثم لا يزال ينكشف له معناه فى كبره شيئًا فشيئًا، فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به وذلك مما يحصل فى الصبى بغير برهان، فمن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه فى أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان، وكيف ينكر ذلك وجميع عقائد العوام مباديها التلقين المجرد والتقليد المحض، نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خالٍ عن نوع من الضعف فى الابتداء، على معنى أنه يقبل الإزالة بنقيضه لو ألقى إليه فلابد من تقويته وإثباته فى نفس الصبى والعامى حتى يترسخ ولا يتزلزل، وليس الطريق فى تقويته وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وسماعهم وهيئاتهم فى الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكانة له، فيكون أول التلقين كإلقاء بذر فى الصدر وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وينبغى أن يحرس سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإن ما يشوشه الجدل أكثر مما يمهده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهى ضرب الشجرة بالمدقة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزاؤها، وربما يفتتها ذلك ويفسدها وهو الأغلب. والمشاهدة تكفيك فى هذا بيانًا فناهيك بالعيان برهانا فقس عقيدة أهل الصلاح والتقى من عوام الناس بعقيدة المتكلمين والمجادلين فترى اعتقاد العامى فى الثبات

كالطود الشامخ لا تحركه الدواهى والصواعق، وعقيدة المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل فى الهواء تفيئه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا إلا من سمع منهم دليل الاعتقاد فتلقفه تقليدًا كما تلقف نفس الاعتقاد تقليدًا إذ لا فرق فى التقليد بين تعلم الدليل أو تعلم المدلول، فتلقين الدليل شىء والاستدلال بالنظر شىء آخر بعيد عنه، ثم الصبى إذا وقع نشوّه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم ينفتح له غيرها، ولكنه يسلم فى الآخرة باعتقاد أهل الحق إذ لم يكلف الشرع أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفوه أصلا، وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهى يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة تحقيقًا لوعده عز وجل إذ قال:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

وهو الجوهر النفيس الذى هو غاية إيمان الصدّيقين والمقربين وإليه الإشارة بالسر الذى وقر فى صدر أبى بكر الصديق ﷺ حيث فضل به الخلق، وانكشاف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن فى النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى، وفى الاستضاءة بنور اليقين، وذلك كتفاوت الخلق فى أسرار الطب والفقه وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة فى الذكاء والفطنة، وكما لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه.

مسألة: فإن قلت: تعلُّم الجدل والكلام مذموم كتعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه؟

فاعلم أن للناس فى هذا غلوا وإسرافًا فى أطراف فمن قائل: إنه بدعة وحرام وإن العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل: إنه واجب فرض إما على الكفاية أو على الأعيان وإنه أفضل الأعمال وأعلى القربات فإنه تحقيق لعلم

التوحيد ونضال عن دين الله تعالى، وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف .

قال ابن عبد الأعلى رحمه الله: سمعت الشافعى ﷺ يوم ناظر حفصًا الفرد وكان من متكلمى المعتزلة يقول: لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام، ولقد سمعت من حفص كلامًا لا أقدر أن أحكيه، وقال أيضًا: قد اطلعت من أهل الكلام على شىء ما ظننته قط، ولأن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر فى الكلام، وحكى الكرابيسى أن الشافعى ﷺ سئل عن شىء من الكلام فغضب وقال: سل عن هذا حفصًا الفرد وأصحابه أخزاهم الله، ولما مرض الشافعى ﷺ دخل عليه حفص الفرد فقال له: من أنا؟ فقال: حفص الفرد لا حفظك الله ولا رعاك حتى تتوب مما أنت فيه، وقال أيضًا: لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد، وقال أيضًا: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له.

قال الزعفرانى: قال الشافعى: حكمى فى أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويطاف بهم فى القبائل والعشائر، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام.

وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبدًا، ولا تكاد ترى أحدًا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل. وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابًا فى الرد على المبتدعة، وقال له: ويحك ألست تحكى بدعتهم أولاً ثم ترد عليهم؟ ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات، فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث؟ وقال أحمد رحمه الله: علماء الكلام زنادقة.

وقال مالك رحمه الله: أرأيت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟! يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت، وقال مالك رحمه الله أيضًا: لا تجوز شهادة أهل البدع

والأهواء؛ فقال بعض أصحابه في تأويله: إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا، **وقال أبو يوسف:** من طلب العلم بالكلام تزندق، **وقال الحسن:** لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم. وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، وقالوا: ما سكت عنه الصحابة مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم إلا لعلمهم بما يتولد منه من الشر، ولذلك قال النبى ﷺ: « **هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون** » (٢٣٢) أى المتعمقون فى البحث والاستقصاء، واحتجوا أيضًا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه، « **فقد علمهم الاستنجاء**» (٢٣٣)، «**وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم**» (٢٣٤)، « **ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال: أمسكوا عن القدر**»(٢٣٥) وعلى هذا استمر الصحابة ﷺ؛ فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم، وهم

(٢٣٢) حديث: « هلك المتنطعون » رواه مسلم من حديث ابن مسعود قال: قال ذلك ثلاثًا؛ **قاله العراقى**.

قال مرتضى: أخرجه الإمام أحمد فى القدر أيضًا وأبو داود فى السنة وليس عندهما ذكره ثلاث مرات، كلهم عن ابن مسعود ﷺ رفعه.

(٢٣٣) حديث: « فقد علمهم الاستنجاء » **قال العراقى**: أخرجه مسلم فى صحيحه عن سلمان ﷺ.

(٢٣٤) حديث: « وندبهم إلى علم الفرائض » **قال مرتضى**: أخرجه ابن ماجه والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة ﷺ: « تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم وهو ينسى وهو أول شيء ينزع من أمتى» قال الحافظ الذهبى: فيه حفص بن عمر بن أبى العطاف واه بمرة، وقال ابن حجر الحافظ: مداره على حفص وهو متروك، وقال البيهقى: تفرد به حفص وليس بقوى، وفى رواية: فإنه من الدين، وأخرج أحمد والترمذى والنسائى والحاكم وصححه بلفظ: تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإنى امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض حتى يختلف اثنان فى الفريضة فلا يجدان من يفصل بينهما. قال الحافظ فى الفتح: رواته موثقون إلا أنه اختلف فيه على عوف الأعرابى، وأخرج الترمذى من حديث أنس: وأفرضهم زيد بن ثابت. « وأثنى عليهم » حيث قال: خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم وقال فى افتراق الأمم: الناجية منهم واحدة فقيل: من هم؟ فقال: ما أنا عليه وأصحابى.

(٢٣٥) حديث: « ونهاهم عن الكلام فى القدر وقال أمسكوا » **قال مرتضى**: أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود وعن ثوبان وابن عدى فى الكامل عن عمر بن الخطاب رفعوه: « إذا=

الأستاذون والقدوة ونحن الأتباع والتلامذة، وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا: إن المحذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التى لم تعهدها الصحابة ﷺ فالأمر فيه قريب إذ ما من علم إلا وقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهيم كالحديث والتفسير والفقه، ولو عرض عليهم عبارة النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التى تورد على القياس لما كانوا يفقهونه ؛ فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آنية على هيئة جديدة لاستعمالها فى مباح، وإن كان المحذور هو المعنى فنحن لا نعنى به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء فى الشرع، فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل، وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يفضى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعجب والرياء وطلب الرياسة مما يفضى إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه، ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظوراً، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (البقرة: ١١١).

وقال عز وجل: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢) .

وقال تعالى: ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ (يونس: ٦٨) أى: حجة وبرهان.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ (الأنعام: ١٤٩) .

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨)

إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادلته وإفحامه خصمه فى معرض الثناء عليه.

= ذُكر أصحابى فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا » أى لما فى الخوض فى الثلاثة من المفاسد التى لا تحصى، وقد مر هذا الحديث فى كتاب العلم وأشبعنا الكلام عليه من جهة الصناعة الحديثية قال البغوى : القدر سر الله لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، لا يجوز الخوض فى البحث عنه من طريق العقل بل يعتقد أنه تعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين : أهل يمين خلقهم للنعيم فضلا وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلا .

وقال عز وجل: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ (الأنعام: ٨٣) .

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ (هود: ٣٢) .

وقال تعالى فى قصة فرعون: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٣).

إلى قوله: ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ٣٠). وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار، فعمدة أدلة المتكلمين فى التوحيد.

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢) .

وفى النبوة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ (البقرة: ٢٣).

وفى البعث: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (يس: ٧٩).

إلى غير ذلك من الآيات والأدلة، ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المنكرين ويجادلونهم.

قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

فالصحابة ﷺ أيضًا كانوا يحاجون المنكرين ويجادلون ولكن عند الحاجة، وكانت الحاجة إليه قليلة فى زمانهم، وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق على بن أبى طالب ﷺ إذ بعث ابن عباس ﷺ إلى الخوارج فكلمهم، فقال: ما تنقمون على إمامكم؟ قالوا: قاتل ولم يسب ولم يغنم، فقال: ذلك فى قتال الكفار، أرأيتم لو سبيت عائشة ﷺ فى يوم الجمل فوقعت عائشة ﷺ فى سهم أحدكم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهى أمكم فى نص الكتاب؟ فقالوا: لا، فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألفان.

وروى أن الحسن ناظر قدريا فرجع عن القـدر، وناظر على بن أبى طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية، وناظر عبد الله بن مسعـود ﷺ يزيد بن عميرة فى الإيمان، قال عبد الله: لو قلت إنى مؤمن لقلت إنى فى الجنة، فـقال له يزيد بن عميـرة: يا صاحب رسول الله، هذه زلة منك، وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة، ولـنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلمـنا أننا من أهل الجنة ؛ فمن أجل ذلك نقول إنا مؤمنون ولا نقول إنا من أهل الجنة، فقال ابن مسعود: صدقت، والله إنها منى زلة.

فينبـغى أن يقال: كـان خوضهم فـيه قليـلا لا كثيـراً، وقصيـراً لا طويلا، وعند الحاجة لا بطريق التـصنيف والتدريس واتخاذه صناعة ؛ فـيقال: أما قلة خوضـهـم فيه فإنه كان لقلة الحاجـة، إذ لم تكن البدعة تظهر فى ذلك الزمان، وأما القصـر فقد كان الغاية إفـحام الخصم واعـترافه وانكشـاف الحق وإزالة الشبهـة ؛فلو طال إشكال الخصم أو إلجاجه لطال لا مـحالة إلزامهم وما كانوا يقـدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيـال بعد الشروع فيها، وأما عدم تصديهم للتدريس والتصنيف فيه، فهكذا كان دأبهم فى الفقه والتفسير والحديث أيضًا ؛ فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التى لا تتفق إلا على الندور إمّا ادخاراً ليوم وقوعـها وإن كان نادراً أو تشـحيذاً للـخواطر، فنحن أيضًا نرتب طرق الـمجادلة لتـوقع وقوع الحاجة بثوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتـشحيذ الخاطر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البديهة والارتـجال كمن يعد السلاح قبل القتال ليوم القـتال فهذا ما يمكن أن يذكر للفريقين.

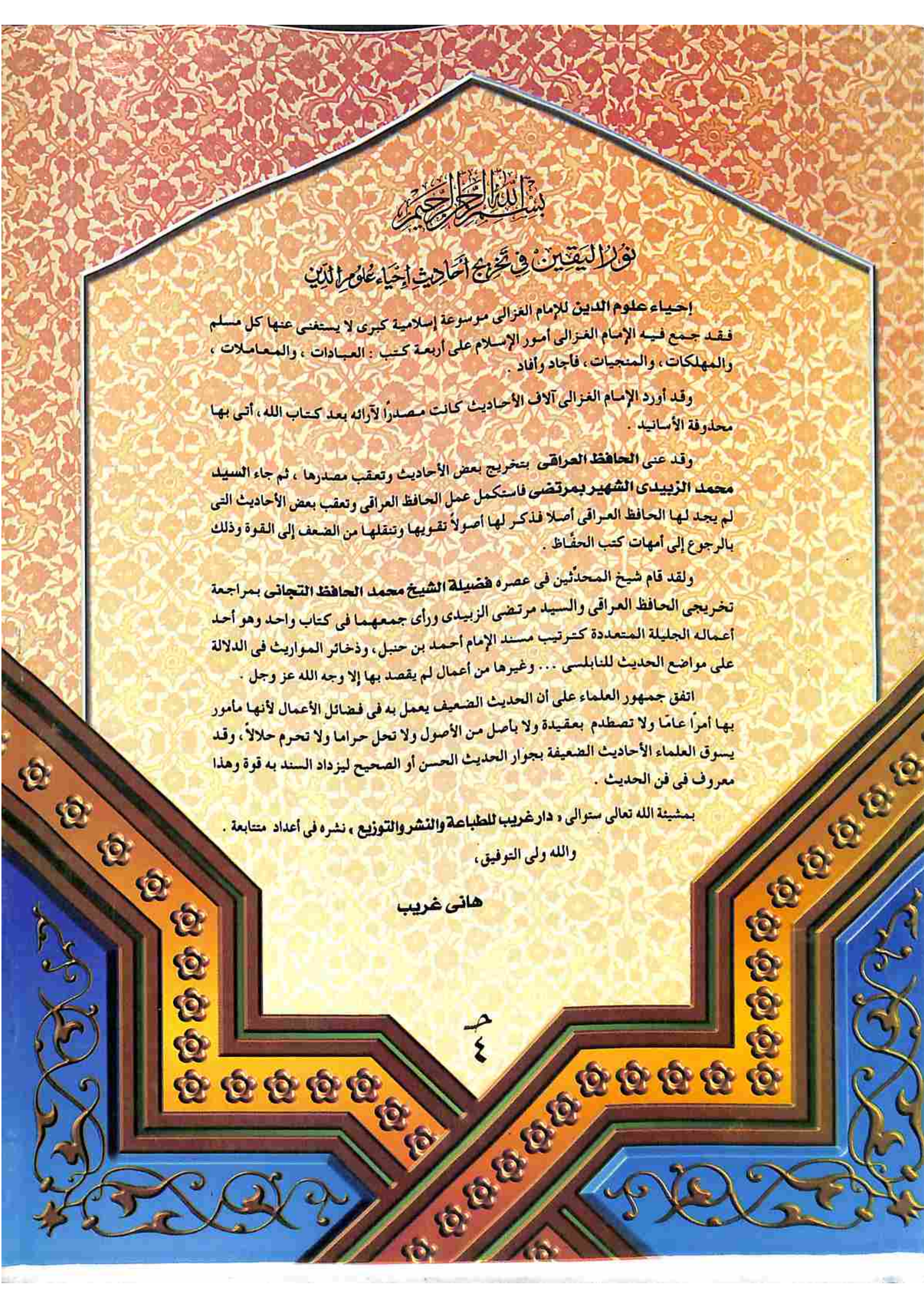
فإن قلت: فما المختار عندك فيـه؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بذمه فى كل حال أو بحمـده فى كل حال خطأ بـل لابد فيه من تـفصيل، فـاعلم أوّلا أن الشىء قد يحـرم لذاته كالخمر والميتة وأعنى بقولى لذاته أن علة تحريمه وصف فى ذاته وهو الإسكار والموت، وهذا إذا سئلـنا عنه أطلقنا القول بأنه حـرام، ولا يلتفت إلى إبـاحة الميـتة عند الإضطـرار، وإباحة تجرع الخمـر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجـد ما يسيغهـا سوى الخمر، وإلى ما يحـرم لغيره كالبيع على بيع أخـيك المسلم فى وقت الخيار والبيع وقت النداء وكأكل الطيـن فإنه يحرم لما

فيه من الإضرار، وهذا ينقسم إلى ما يضر قليله وكثيرة فيطلق القول عليه بأنه حرام كالسم الذى يقتل قليله وكثيره، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كالعسل فإن كثيره يضر بالمحرور، وكأكل الطين، وكان إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على العسل التفات إلى أغلب الأحوال ؛ فإن تصدى شىء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل.

فنعود إلى علم الكلام ونقول: إن فيه منفعة وفيه مضرة، فهو باعتبار منفعته فى وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته فى وقت الاستضرار ومحله حرام، أما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم ؛ فذلك مما يحصل فى الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره فى الاعتقاد الحق، وله ضرر آخر فى تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة وتثبيته فى صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذى يثور من الجدل، ولذلك ترى المبتدع العامى يمكن أن يزول اعتقاده باللطف فى أسرع زمان إلا إذا كان نشوؤه فى بلد يظهر فيه الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا إلى نزع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبغض خصوم المجادلين وفرقة المخالفين يستولى على قلبه ويمنعه من إدراك الحق، حتى لو قيل له: هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكره ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه، وهذا هو الداء العضال الذى استطار فى البلاد والعباد، وهو نوع فساد أثاره المجادلون بالتعصب فهذا ضرره، وأما منفعته فقد يُظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه، وهيهات فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف وأمل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف، وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أُخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمرى لا ينفك الكلام

عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الندور فى أمور جلية تكاد تفهم قبل التعمق فى صنعة الكلام بل منفعته شىء واحد وهو حراسة العقيدة التى ترجمناها على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل،فإن العامى ضعيف يستفزه جدل المبتدع وإن كان فاسدًا، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه، والناس متعبدون بهذه العقيدة التى قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها، والعلماء يتعبدون بحفظها على العوام من تلبيسات المبتدعة كما تعبد السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والغصاب، وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنفعته فينبغى أن يكون كالطبيب الحاذق فى استعمال الدواء الخطر إذ لا يضعه إلا فى موضعه، وذلك فى وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة، وتفصيله أن العوام والمشتغلين بالحرف والصناعات يجب أن يتُركوا على سلامة عقائدهم التى اعتقدوها مهما تلقنوا الاعتقاد الحق الذى ذكرناه، فإن تعليمهم الكلام ضرر محض فى حقهم إذ ربما يثير لهم شكًا ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح،وأما العامى المعتقد للبدعة فينبغى أن يُدعى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب، وبالكلام اللطيف المقنع للنفس، المؤثر فى القلب، القريب من سياق أدلة القرآن والحديث، الممزوج بفن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين، إذ العامى إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلمها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده، فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه أيضًا يقدرون على دفعه، فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذا مع من وقع فى شك إذ يجب إزالته باللطف والوعظ،والأدلة القريبة المقبولة البعيدة عن تعمق الكلام، واستقصاء الجدل إنما ينفع فى موضع واحد وهو أن يفرض عامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثله فيعود إلى اعتقاد الحق، وذلك فيمن ظهر له من الأنس بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواعظ والتحذيرات العامية فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل فجاز أن يلقى إليه، وأما فى بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف فيها المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذى ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويتربص وقوع شبهة فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة، فإن كانت البدعة شائعة، وكان يخاف على الصبيان أن يخدعوا

فلا بأس أن يعلموا القدر الذى أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سببًا لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت إليهم، وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره،فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت فى نفسه شبهة فقد بدت العلة المحذورة وظهر الداء فلا بأس أن يرقى منه إلى القدر الذى ذكرناه فى كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » وهو قدر خمسين ورقة وليس فيه خروج عن النظر فى قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين، فإن أقنعه ذلك كف عنه وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمنة والداء غالبا والمرض ساريًا فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن ينكشف له الحق بتنبيه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والشبهة إلى ما قدر له، فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجنسه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه، فأما الخارج منه فقسمان: أحدهما بحث عن غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتمادات وعن الأكوان وعن الإدراكات وعن الخوض فى الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العمى، وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات. والقسم الثانى زيادة تقرير لتلك الأدلة فى غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضًا استقصاء لا يزيد إلا ضلالا وجهلا فى حق من لم يقنعه ذلك القدر، فرب كلام يزيده الإطناب والتقرير غموضًا، ولو قال قائل: البحث عن حكم الإدراكات والاعتمادات فيه فائدة تشحيذ الخواطر، والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه، كان كقوله: لعب الشطرنج يشحذ الخاطر فهو من الدين أيضًا، وذلك هوس فإن الخاطر يتشحذ بسائر علوم الشرع ولا يخاف فيها مضرة ؛ فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام، والحال التى يذم فيها والحال التى يحمد فيها، والشخص الذى لا ينتفع به، والشخص الذى لا ينتفع به، فإن قلت: مهما اعترفت بالحاجة إليه فى دفع المبتدعة والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة فلابد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما، وما لم يشتغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يدوم، ولو


بسم الله الرحمن الرحيم
نور اليقين في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين
إحياء علوم الدين للإمام الغزالى موسوعة إسلامية كبرى لا يستغنى عنها كل مسلم فقد جمع فيه الإمام الغزالى أمور الإسلام على أربعة كتب : العبادات ، والمعاملات ، والمهلكات ، والمنجيات ، فأجاد وأفاد .
وقد أورد الإمام الغزالى آلاف الأحاديث كانت مصدراً لآرائه بعد كتاب الله ، أتى بها محذوفة الأسانيد .
وقد عنى الحافظ العراقى بتخريج بعض الأحاديث وتعقب مصدرها ، ثم جاء السيد محمد الزبيدى الشهير بمرتضى فاستكمل عمل الحافظ العراقى وتعقب بعض الأحاديث التى لم يجد لها الحافظ العراقى أصلا فذكر لها أصولاً تقويها وتنقلها من الضعف إلى القوة وذلك بالرجوع إلى أمهات كتب الحفّاظ .
ولقد قام شيخ المحدّثين فى عصره فضيلة الشيخ محمد الحافظ التجانى بمراجعة تخريجى الحافظ العراقى والسيد مرتضى الزبيدى ورأى جمعهما فى كتاب واحد وهو أحد أعماله الجليلة المتعددة كترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الحديث للنابلسى ... وغيرها من أعمال لم يقصد بها إلا وجه الله عز وجل .
اتفق جمهور العلماء على أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال لأنها مأمور بها أمراً عامّا ولا تصطدم بعقيدة ولا بأصل من الأصول ولا تحل حراما ولا تحرم حلالاً ، وقد يسوق العلماء الأحاديث الضعيفة بجوار الحديث الحسن أو الصحيح ليزداد السند به قوة وهذا معروف فى فن الحديث .
بمشيئة الله تعالى ستوالى « دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع » نشره فى أعداد متتابعة .
والله ولى التوفيق ،
هانى غريب
ج ٤